كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

الأسلوب الحكيم في كتاب الأجوبة المسكتة لابن أبى عون (ت ٣٢٢ هـ) صوره وأسراره البلاغية " أجوبة الزهاد نموذجاً "

إعداد

د/ سامية عبدالحميد عبدالمجيد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد
في كلية البنات الإسلامية بأسيوط

(العدد التاسع والثلاثون)
(الإصدار الثاني ـ الجزء الخامس)
١٥٦٧
(١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠م)

الأسلوب الحكيم في كتاب الأجوبة المسكتة

لابن أبى عون (ت ٣٢٢ هـ) صوره وأسراره البلاغية

سامية عبدالحميد عبدالمجيد
قسم البلاغة والنقد – كلية البنات الإسلامية – جامعة الأزهر بأسيوط – مصر
البريد :samiaabdelhamed.78@azhar.edu.eg

الملخص :

يقدم هذا البحث لظاهرة بلاغية تعد من أجل أبواب البلاغة لما فيها من العدول إلى ما هو أهم وأنسب في إقناع المتلقي، وتهييج مشاعره، وإثارة مرجعياته الثقافية والاجتماعية، ألا وهي ظاهرة الأسلوب الحكيم، من خلال كتاب مسكوت عنه في الدراسات البلاغية وهو " الأجوبة المسكتة لابن أبى عون المتوفى ٣٢٢ هـ" ولما كان هذا الكتاب يتسم بالموضوعات الوافرة والمتشعبة، آثرت أن أقصر الدراسة على معالجة {جوابات الزهاد } التي من شأنها إقناع المخاطبين، وتمكِّين الحقائق في عقولهم، وتأكيد المعنى في نفوسهم، ومن ثمَّ كثرت الشواهد الموسومة بالأسلوب الحكيم في أجوبة الزهاد، وحتى تؤدي هذه الشواهد وظيفتها المنوطة بها، جاءت في نطاق المحسوس، ملتزمة جهة الحقيقة، بعيدة عن المجازية وكل ما يوري المعنى، مع تنوع هذه الشواهد بين الخبرية والإنشائية. وانطلاقا من ذلك جاءت الدراسة لتجلى موضوعات من قبيل تلقى السائل بغير ما يتطلب مع إبراز الصور والأسرار البلاغية التي قدمها هذا المنحى، ثم الوقوف على محاور بلاغية لها أهميتها في هذا الميدان مثل: العدول عن الجواب المباشر إلى ما يفيده ضمناً، و الجواب عن السؤال بطريق التشبيه، والزيادة في الجواب لنكتة، ومجيء الجواب أعم من السؤال . إضافة إلى ذلك فقد وقفت الدراسة على تلقى المخاطب بغير ما يترقب

مع إبراز الصور والأسرار البلاغية التي قدمها هذا المقصد سواء أكان ذلك بطريق الإثبات أم بطريق النفي الصريح.

الكلمات الافتتاحية: أجوبة الزهاد، أسلوب الحكيم، ابن أبي عون، التلقي، الإثارة. الحقيقة والمجاز.

The wise style of Ibn Abi O'ne's book "The refuting answers" Images and rhetorical secrets

Samya Abd Almajeed
Rhetoric and criticism department – Islamic girls' college – Assuit- Egypt
Email: samiaabdelhamed.78@azhar.edu.eg

Abstract:

This research presents a phenomenon which is one of the main domains of rhetoric, because of its tendency toward what is suitable for convincing the reader, stirring up his feelings, and stimulating his cultural and social references, this process is called "The wise style". This theory was explained in an obscure book titled "The refuting answers" by Ibn Abi O'ne who died in ٣٢٢ hijri. Since this book contained multiple and branched subjects, the researcher preferred to strict the study to processing "the ascetics' answers" that is sufficient to persuade the recipient, establish facts in their minds, and assure the intended meaning in them. There were a plenty of the evidences described with "The wise style" in the ascetics' answers, also it were mentioned in the range of the tangible matters, adhered to the truth, and far from the metaphor and every style that hide the true meaning with the diversity of the style between the indicative and the constructive one to do its intended job. So, the study is held to demonstrate subjects like the providing the questioner with answers without asking through clarifying the rhetoric images and secrets showed by this side of the research. The study also investigated some important rhetoric axes of this field like: -Desisting from the direct answer to what shows it implicitly. Answering the question using the simile. Mentioning the answer in a more

general mode than the question. Full clarification of the answer to confirm it. In addition, the study exposed the recipient's acquisition without expectancy with highlighting rhetoric images and secrets represented by this meaning whether by proving it or clear negation.

Keywords: The ascetics' answers, the wise styl , Ibn Abi O'ne , acquisition, stirring up, a fact and a metaphor

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد ،،،

حَظِيَ الزهاد والنساك بمنزلة عظيمة في نفوس الخلق ، لأن الناس كانوا يتوجهون إليهم يسألونهم في أمور دينهم ودنياهم ، وكانت أقوالهم وأفعالهم مثالاً يحتذى به ، جاء ذلك في تعبيراتهم وأجوبتهم التي كانوا يخاطبون بها العقول والأفكار ، ولما كانت مهمة الزهاد مراعاة أحوال المخاطبين وتهذيب نفوسهم ، وتمكين الحقائق في عقولهم ، مع التأثير في المخاطب ، فاقتضى ذلك أن يأتي في أجوبته بجملة من الأساليب التي تناسب حال المخاطب إقراراً وإمتاعاً ، وكان من أنجبها الأسلوب الحكيم تحقيقاً لهذه الغاية التي تجمع بين الإفادة والتأثير ، لذا أردت الوقوف على بلاغة الزهاد ، وبيان كيف وظفوا الأسلوب الحكيم في تأدية المعنى المراد ، حتى يصل بالمخاطب والسائل إلى الإقناع والإمتاع .

ومن أسباب اختياري للموضوع أنه موضوع بكر ، لم تتناوله أيدى الباحثين فلم أجد دراسة تتعلق بالأسلوب الحكيم ، وبيان صوره ، وأسراره البلاغية في أجوبة الزهاد .

وقد اتبعت في بحثى المنهج التحليلي ، وذلك بتحليل الشواهد، وتوضيح صور الأسلوب الحكيم ، وبيان كيف حقق الغاية المنشودة ، وجمع بين الإفادة والإثارة مع توضيح ما اكتنف الجواب الحكيم من ألفاظ وتراكيب أسهمت في علو شأنه .

لذا كانت هذه الدراسة وعنوانها " الأسلوب الحكيم في كتاب الأجوبة المسكتة لابن أبى عون المتوفى ٣٢٢هـ صوره وأسراره البلاغية " أجوبة الزهاد نموذجاً " ، واقتضت طبيعة البحث أن يجئ في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة .

تحدثت في المقدمة : عن أهمية الموضوع، ومنهجه، وخطته .

أما التمهيد: فتناولت فيه نبذة عن الأسلوب الحكيم، وعن كتاب الأجوبة المسكتة ، ومؤلفه ، ونبذة عن تعريف الزهد وفضله، ودرجاته .

المبحث الأول : تلقى السائل بغير ما يتطلب، صوره ، وأسراره البلاغية ، واشتمل على أربعة محاور:

المحور الأول :العدول عن الجواب المباشر إلى ما يفيده ضمناً .

المحور الثاني :الجواب عن السؤال بطريقة التشبيه .

المحور الثالث : الزيادة في الجواب لنكتة

المحور الرابع: مجيء الجواب أعم من السؤال .

المبحث الثاني : تلقى المخاطب بغير ما يترقب ، صوره وأسراره البلاغية ، واشتمل على محورين :

المحور الأول: تلقى المخاطب بطريق الإثبات.

المحور الثاني: تلقى المخاطب بطريق النفي الصريح.

الخاتمة وفيها نتائج البحث وتوصياته، وفهارس المصادر والمراجع،

أخيرا الله أسأل ان يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وان يجعله في ميزان حسنات صاحبه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين

تمهيـــد

أولاً : نبذة عن الأسلوب الحكيم

الأسلوب الحكيم فن من الفنون البلاغية يتميز بالإحكام في الصياغة، والإتقان في الأداء؛ ليحقق الغاية المنشودة التي تهدف إلى إقناع المخاطب، وتمكين المعنى في نفسه.

ويعتبر الجاحظ المتوفى ٢٥٥هـ أول من أشار إلى هذا اللون البلاغي ، ونبه عليه ،

وسماه" اللغز في الجواب"، وأفرد له بابًا مستقلاً في كتابه "البيان والتبيين" (١)

كما تحدث عنه الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى ٤٧١ \ ٤٧٤هـ في كتابه "دلائل الإعجاز" أثناء حديثه عن "مثل وغير" في تقديم المسند إليه، وسماه "المغالطة" (٢) .

ويعد السكاكي المتوفى ٦٢٦هـ أول من أطلق هذه التسمية {الأسلوب الحكيم} على هذا المصطلح البلاغي فقد حدد ضابطه ، ومعالمه ، وجعله ضمن موضوعات علم المعاني { خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر } فيقول: { ولهذا النوع، أعنى إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر أساليب متفننة ، إذ ما من مقتضى كلام ظاهري إلا ولهذا النوع مدخل فيه بجهة من جهات البلاغة ..... ولكل من تلك

(١) البيان والتبيين تأليف: أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون ج ٢ / ١٤٧ مكتبة الخانجى ، الطبعة السابعة ١٤١٨هـ /١٩٩٨ م

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٣٨/١٣٩ تحقيق محمود محمد شاكر– مطبعة المدني القاهرة

الأساليب عرق في البلاغة يتسرب من أفانين سحرها، ولا كالأسلوب الحكيم فيها، ثم عرفه بقوله: تلقى المخاطب بغير ما يترقب ، أو السائل بغير ما يتطلب } [١] .

وقد ارتضى علماء البلاغة هذا التعريف ، وقام الخطيب القزويني المتوفى ٧٣٩هـ بشرح التعريف وتوضيحه وذلك بزيادة بعض الألفاظ التي تبين علة استخدام هذا الأسلوب فعرفه بقوله: { هو تلقى المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أنه الأَوْلى بالقصد ، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأَوْلى بحاله أو المهم له } [٢] ، وجعله من موضوعات علم المعاني ، أما في شرحه لكتاب الإيضاح لتلخيص المفتاح فأحياناً يجعله من موضوعات علم المعاني[٣]، وأخرى من موضوعات علم البديع حيث أثبته بأنه القسم الثاني من القول بالموجب[٤] .

يتضح من آراء العلماء السابقين أن منهم من عده في علم المعاني، وذلك بناء على أنه حال من أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق الكلام مقتضى الحال، وهو من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر؛ لأن المتكلم يجيب المخاطب ، والسائل بغير ما يتطلب ويسأل ؛ ليطابق مقتضى الحال .

---

(١) مفتاح العلوم ص ٣٢٧ تحقيق نعيم زرزور_ دار الكتب العلمية _بيروت –الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ج ١ ص ٦٨/٦٧ –دار المكتبة الأزهرية للتراث الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

(٣) بغية الايضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة تأليف عبد المتعال الصعيدي ج ١/١٢٠ _مكتبة المعارف الرياض ١٤٢٠_ ١٤٢١هـ / ١٩٩٩_ ٢٠٠٠م .

(٤) نفسه ج٤ /٦٠

أما من جعله من علم البديع فمن حيث إنه علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال، وهذا لأن الأسلوب الحكيم يضفى حسنًا وطرافة لما فيه من عنصر المفاجأة، والرد غير المتوقع مع ملاءمته لحال المخاطب.

ثانياً: التعريف بابن أبي عون

نسبه:

هو إبراهيم بن محمد بن أبى عون أحمد بن أبى النجم أبو إسحق، على أصح الروايات [١]

مولده:

ولد ابن أبي عون ما بين عامي ٢٤٠-٢٤٥هـ[٢] في بغداد على أغلب الظن حيث كان والده صاحباً لمحمد بن عبد الله بن طاهر[٣] عندما كان يعمل أميراً لبغداد أيام المتوكل.

نشأته:

تنقل والد إبراهيم ما بين بغداد ، وواسط ، وسامراء ، والبصرة وغيرها [٤] ولعل هذا يجلو شيئا من الغموض الذى اكتنف طياته، فمن الجائز أن يكون قد ولد في

---

(١) اختلفت الروايات في اسمه فورد بهذا الاسم في هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين تأليف إسماعيل باشا البغدادي ٥/١ الناشر مؤسسة التاريخ العربي
أما عند ابن النديم فهو إبراهيم بن أبى عون أحمد بن المنجم بن هلال ، مسقطاً محمداً من نسبه، ينظر الفهرست ص١٥٠.
وفى معجم الأدباء ورد هكذا : إبراهيم بن محمد بن أحمد بن أبى عون بن هلال بن أبى النجم الكاتب إسحق ينظر معجم الأدباء تأليف ياقوت الحموي ج٦/١

(٢) تاريخ بغداد ٣٢٦/٤-٣٢٧ الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ٢٠٠١م

(٣) محمد بن عبد الله بن طاهر بن مصعب الخزاعي أبو العباس ، كان أميراً لبغداد أيام المتوكل، وحاجبًا للمعتز بعد ذلك توفي عام٢٥٣هـ-٨٦٧ م، ينظر مروج الذهب١٣٨/٤

(٤) أسماء مدن بالعراق

بغداد ، ثم انتقل إلى سامراء أيام المنتصر ، ثم إلى واسط أيام المستعين ، ومنها إلى البصرة والبحرين واليمامة أيام المعتز ، فيكون إبراهيم قد نشأ وترعرع ، واشتد عوده في البصرة موطن العلم والأدب ، ثم انتقل إلى بغداد مرة أخرى بعد أن بلغ الصبا حيث موطن الخلافة ، وموئل العلم والعلماء [١]. .

ثقافته ومشايخه :

تنوعت ثقافة ابن أبى عون تبعاً لتنوع المصادر التي تلقى عنها هذه الثقافة وتكونت حيث شملت ميادين عدة في العلم والمعرفة منها ميدان الشعر والأدب، وميدان اللغة والأدب ، يقول ابن النديم [وكان من أهل الأدب ، مؤلفاً للكتب] [٢] وكان ابن أبى عون من طبقة اجتماعية ذات قدرة كبيرة على تحصيل العلم والارتشاف من مناهله ، وقد توفر له هذا التحصيل على أيدى أئمة اللغة والنحو ممن لمعت أسماؤهم في سماء بغداد مثل المبرد وثعلب ، وأثرا فيه تأثيراً واضحاً وروى عنهما في كتابيه [التشبيهات..، والأجوبة المسكتة] ، شعراً وأخبار كثيرة [٣]

كما كانت لديه ثقافة دينية أخذها على أيدى المشاهير في الفقه والحديث، ولم يقتصر على الثقافة العربية ، بل شملت ما كان غير عربى آنذاك كالفلسفة

(١) تجارب الأمم وتعاقب الهمم تأليف أبي على أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه المتوفي ٤٢١هـ تحقيق سيد كروري حسن ١٢٣/١ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٣م-١٤٢٤هـ

(٢) الفهرست ص١٥٠

(٣) الأجوبة المسكتة ص ٣٨ ، ٤٤ ،٥٥، ٢٦٦

حيث أفرد لها في كتابه الذى بين أيدينا بابين للفلاسفة والمتكلمين [١]

أعماله ومؤلفاته:

مما لا ريب فيه أن نوع الثقافة الذى يغلب على محيط معين ، يؤثر على أهل هذا المحيط فقد غلبت الملكة الشعرية وملكة الكتابة على آل أبى عون ، فظهر فيهم شعراء وكتاب ، وبالتالي ورث إبراهيم الكتابة والشعر، وإن لم يكن نظمه فميل إلى نقده ودراسته [٢] ، فقد امتهن إبراهيم ابن أبى عون الكتابة حيث عمل عند العباس بن محمد ثوابة [٣] وكان من عائلة مشهورة بالكتابة في الدولة العباسية، ولم يكتف بالكتابة مع ابن ثوابة ، بل عمل قائداً تحت إمرته ، وبعد وفاته عمل كاتباً مع الشلمغاني[٤] في عهد الوزير حامد بن العباس فكان من كتاب الدولة البارزين [٥] وفى خلال وزارة آل الفرات الثالثة عمل إبراهيم بن أبي عون قائداً تحت إمرة المحسن ابن الفرات [٦] وقد استغل رؤساؤه ممن عمل معهم قوة شخصيته

---

(١) ينظر التشبيهات لابن أبي عون عنى بتصحيحه محمد عبد المعيد خان جامعة كمبرج (١٣٦٩هـ-١٩٥٠م)

(٢) الأجوبة المسكتة لابن أبى عون ص ٢٢.

(٣) هو أحمد بن محمد بن ثوابة بن خالد الكاتب أبو العباس مات سنة سبع وسبعين ومائتين وقال الصولي مات في سنه ثلاث وسبعين ينظر معجم الأدباء ٤٧/١.

(٤) هو أبو جعفر محمد بن على الشلمغانى المعروف بابن أبى العراقر – ينظر الفهرست ص ١٥٠

(٥) معجم الأدباء ٤٧/١

(٦) المحسن بن علي بن محمد بن الفرات من أبناء الوزارة ، في سيرته تعسف وجبروت ، كان مع أبيه ببغداد ، وعندما تسلم أبوه وزارته الثالثة عام ٣١١هـ أطلق يده في أمور الدولة فبالغ في الانتقام فلم تطل مدتها فقد قتلا بأمر من الخليفة المقتدر عام٣١٢هـ. ينظر أخبار المحسن ووالده في كتاب الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء لأبى الحسن الهلال بن=

وميله إلى السيطرة فأوكلوا إليه تنفيذ مهمات ذات صفة عنيفة ليس تحت إمرة ابن ثوابة فقط ،بل تحت إمرة المحسن بن الفرات كذلك [١]

عاش إبراهيم بن أبى عون قمة نشاطه الأدبي في أواخر القرن الثالث الهجري ، وهى الفترة الزمنية التي شهدت نشاطا أدبياً كبيراً ، وتنافساً في التأليف في مختلف الموضوعات ، وقد كان ابن أبى عون نتاج هذه الفترة فقد كان له مؤلفات كثيرة منها في اللغة والأدب كتاب " النواحي في أخبار البلدان " وكتاب " الأجوبة المسكتة " الذى نحن بصدد الحديث عنه ، كما ألف في موضوعات إدارية منها كتاب (بيت مال السرور) وكتاب (الدواوين) وكتاب (الرسائل)[٢] فغزا بمؤلفاته ميادين كثيرة إلا أن معظم مؤلفاته لم يكتب لها البقاء ، فقد أحرقت بعد إعدامه مثلها في ذلك مثل كتب معظم من اتهم بالإلحاد والزندقة [٣]

وفاته:

قتل إبراهيم بن أبى عون عام ٣٢٢هـ-٩٣٤م [٤] ولعل سبب إعدامه اتهامه بالإلحاد والكفر ، وقيل ربما كان هناك سبب آخر وهو النزاع على مراكز قيادية منها رياسة طائفة مذهبية.

= المحسن الصابي تحقيق عبد الستار أحمد فراج ص ١٠٥٧ :١٧٨- مروج الذهب ٢٤٢/٤

(١) معجم الأدباء ٤٦/١.

(٢) الأجوبة المسكتة لابن أبى عون ص ٢٣.

(٣) معجم الأدباء ٥٢/١.

(٤) معجم الأدباء ٤٧/١ ، ٥٢ - هدية العارفين٥/١.

نبذة عن كتاب الاجوبة المسكتة

يعتبر ابن أبى عون من علماء القرن الثالث الهجري الذين برعوا في علم اللغة والأدب والنحو ، ومع ذلك لم ينل شهرة مثل غيره من علماء عصره ، ومن مؤلفاته كتاب " الأجوبة المسكتة " وقد ألفه ابن أبى العون ما بين عام ٢٩٦هـ – ٩٠٤ م – و ٣٠٥هـ – ٩١٣ م والكتاب عبارة عن مجموعة ضخمة من الأجوبة جمالها في خفة روايتها ، ورشاقة أسلوبها ، ونصاعة لغتها وقد ضم بين دفتيه مجموعة نادرة من الأجوبة التي تقنع المخاطب ، وتدفعه للتسليم بما يلقى إليه من أخبار ونصائح وعظات ، ولا تدع مجالاً للشك ، ولم يجعل ابن أبى عون كتابه مقتصراً على طائفة معينة من الناس بل جاء كتابه مشتملاً على أجوبة العديد من الطوائف فجاء في تسعة أجوبة تسبقها مقدمة ، أما المقدمة فجاءت موجزة ، حاشدة لكثير من الأمثال والآراء.

والباب الأول جاء بعنوان الجوابات الجدية وهى عبارة عن مجموعة ضخمة من المرويات التي تغلب عليها صفة الجدية ، ومع ذلك لا تخلو من مادة مسلية ذات مسحة هزلية .

أما الباب الثاني فتحدث فيه عن جزء من جوابات الفلاسفة والحكماء، وجميعها تدور حول الفضيلة، والتعليم، والجرأة ، والسلوك الحسن .

أما الباب الثالث فتناول فيه جزءاً من أمثال اليونانيين وهى عبارة عن مجموعة من أمثال وحكايات تدور على ألسنة الحيوانات .

وجاء الباب الرابع بعنوان جوابات الزهاد – وهو محل الدراسة والبحث – وفيه تحدث عن الزهاد الذين عاشوا في القرنين الأول والثاني الهجريين للتعرف على طرائق تفكيرهم ، وسلوكهم في الحياة ، ولم يقتصر المؤلف في الأجوبة الواردة على الزهاد المسلمين بل ذكر فيه شيئاً من جوابات وكلام الرهبان فيقول: قيل لراهب ، قال راهب ، قيل عابد ، وكونه يجمع بين أقوال المسلمين وغير المسلمين أو يثبتها

في مؤلفه الذى كتبه في القرن الثاني دليل على تحقيق مبدأ الأخوة الإنسانية ونشر روح التسامح وهذا ما يدعو إليه واقعنا المعاش ، ولا أدل على ذلك من وثيقة الأخوة الإنسانية التي صدرت في فبراير ٢٠١٩ والتي تحث على المساواة بين بنى الإنسان ، لا فرق بين مسلم وغيره ، كما دعت إلى نشر ثقافة التسامح والتعايش والسلام ، واحترام الآخر ، فالجميع إخوة لهم نفس الحقوق ، وعليهم الواجبات ، وكونه يجمع بين المسلمين وغيرهم ، فهذا يدل أيضاً على أنه يقصد بالزهد معناه العام الذى هو الطاعة والاستسلام لله عز وجل والخشية الشديدة منه سبحانه ، والتنفير من الدنيا ، ومغرياتها ، وذكر الموت ، وتجهيز النفس مسبقاً للحياة الأخرى .

وجاء الباب الخامس بعنوان من جوابات المتكلمين وفيه أثبت قدرة المتكلمين على إدارة الجدل، ومواجهة المجادل بالحجة القاطعة، وبجواب مسكت لا يخلو – في بعض الأحيان – من الطرفة

أما الباب السادس فكان بعنوان من أجوبة الأعراب ، وجعله موضع تندر ودعابة أهل الحضر للأعراب في كلامهم وتصرفاتهم، وجاءت أجوبتهم تعكس الفقر وضراوة العيش وقسوة الطبيعة ، ولم يكتف المؤلف بالحديث من أجوبة الرجال بل جعل للنساء وأجوبتهم نصيباً من كتابه ، وكان هذا هو الباب السابع وكانت أجوبتهم،– في معظمها– تدور على علاقة المرأة بزوجها ، وحول مواجهة بعض النساء الجريئة للحكم .

أما الباب الثامن فتناول جوابات المدنيين والمخنثين ، وفيه تحدث عن جوابات نماذج معينة من البشر ، وذكر أخبارهم مثل التخنث والمخنثين ، وختم

كتابه بالحديث عن الجوابات الهزلية ، وكان هذا هو الباب التاسع والأخير من الكتاب ، وفيه حشد عدداً من المادة الهزلية والأخبار الماجنة [١].

الجانب الثالث من التمهيد : الزهد :

وفى هذا الجانب تحدثت فيه عن تعريف الزهد في اللغة والاصطلاح، ودرجاته، وفضيلته .

تعريف الزهد في اللغة :

الزهد والزهاد في الدنيا ، ولا يقال الزهد إلا في الدين خاصة ، وزهد فيه كمنع وسمع وكرم ، زهدا وزهادة : أوْهِىَ في الدنيا .

وزهد في الدين : ضد رغب ، والتزهيد في الشيء وعن الشيء : خلاف الترغيب فيه ، والزهيد : القليل ، والزاهد هو الذى يرغب عن كل ما سوى الله تعالى، ولا يحب إلا الله تعالى ، وجمعه زُهَّد وزُهَّاد وزاهدون [٢]

تعريف الزهد عند الصوفية :

عرف الصوفية الزهد عدة تعريفات ، من ذلك قول شاه الكرمانى [٣]:

---

(١) ينظر الأجوبة المسكتة ص ٦٢ : ٧٢ بتصرف .

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة (ز هـ د) ج ٣ ص ١٨٤٦ – دار المعارف.
– القاموس المحيط للفيروز آبادى ج ١ ص ١٣٠٩– دار الجيل – بيروت .
– تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ج ٢ ص ١٣٩٠.

(٣) هو شاه بن شجاع أبو الفوارس ، كان من أولاد الملوك ، وكان من أجلة الفتيان ، وله رسالات مشهورة والمثلثة التي سماها "مرآة الحكماء " ورد نيسابور في زيارة أبي حفص ومات قبل الثلاثمائة ويقال : إن أصله من هرو . ينظر طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي تحقيق نور الدين شريبة ص١٩٢، ١٩٣ ، الطبعة الثالثة ١٤٠٦-١٩٨٦م.

"علامة الزهد قصر الأمل " وقول الحسن البصري : "والزهد في الدنيا أن تبغض أهلها وتبغض ما فيها" [١] .

وقيل الزهد من قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[٢] .

فالزاهد لا يفرح بموجود من الدنيا ، ولا يتأسف على مفقود فيها " [٣].

وقيل لبعضهم ما الزهد في الدنيا؟ قال ترك ما فيها على من فيها[٤].

وتعريفه عند بعض فلاسفة المسلمين كالإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ بأنه عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه ، وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهداً ، وشرط المرغوب فيه أن يكون خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة[٥].

ولذلك قال الله عز وجل : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [٦]. معناه باعوه، ووصف أخوة يوسف بالزهد فيه ، إذ طمعوا أن

(١) الرسالة القشيرية في علم التصوف لأبى القاسم القشيرى النيسابورى مع تعقيبات شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٩٥ تحقيق ودراسة هاني الحاج المكتبة التوفيقية .

(٢) سورة الحديد بعض آية ٢٣.

(٣) الرسالة القشيرية في علم التصوف لأبى القاسم القشيري النيسابوري مع تعقيبات شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٩٤ تحقيق ودراسة هاني الحاج – المكتبة التوفيقية

(٤) المرجع السابق ص ٩٠.

(٥) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ج ٤ ص ٢١٦ ، ٢١٧ دار المعرفة – بيروت.

(٦) سورة يوسف ٢٠.

يخلو لهم وجه أبيهم ، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف، فباعوه طمعاً في العوض ، فإذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا " [١] .

تعريفه عند بعض الأدباء القدامي كالجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ

أورد الجاحظ عدة تعريفات للزهد فقال : قيل لمحمد بن على[٢] مَنْ أشد الناس زهدا؟

قال : من لا يبالي الدنيا في يد مَنْ كانت [٣].

فضل الزهد :

الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ، قال الله تعالى :

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ* وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ ﴾ [٤] . فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء .

ووصف الله عز وجل الزهد بأنه من أحسن الأعمال فقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [٥] . قيل معناه : أيهم أزهد فيها [٦].

---

(١) إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢١٧ .

(٢) محمد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب الهاشمي ، أبو جعفر الباقر وهو من التابعين ولد سنة٥٦ هـ وتوفي سنة ١٢٨ . ينظر البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٦٢. تحقيق عبد السلام هارون – الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م مطبعة المدنى .

(٣) نفسه ٣ / ١٦١.

(٤) سورة القصص ٧٩، ٨٠.

(٥) سورة الكهف آية ٧.

(٦) إحياء علوم الدين للغزالي ج ٤ ص ٢١٩، دار المعرفة – بيروت .

وقال رسول الله : " إذا أراد الله بعبد خيراً ، زهده في الدنيا، ورغبه في الآخرة، وبصره بعيوب نفسه " (١) .

وقال – ﷺ – : " من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات، ومن خاف من النار لها عن الشهوات ، ومن ترقب الموت ترك اللذات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات.(٢)

درجات الزهد:

ليس الزهد على درجة واحدة ، وإنما يتفاوت حسب تفاوت قوته على درجات.

١– الدرجة الأولى وهي السفلى، وهي: أن يزهد الإنسان في الدنيا وهو لها مشتهٍ وقلبه إليها مائل، ونفسه إليها ملتفتة ، وصاحب هذه الدرجة يسمى المتزهد .

والمتزهد على خطر فإنه ربما تغلبه نفسه ، تجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا، وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير.

٢ – الدرجة الوسطى وهو الذي يترك الدنيا طوعًا لاستحقاره إياها ، بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهماً من أجل درهمين ، فإنه لا يشق عليه ذلك ، وإن كان يحتاج إلى انتظارٍ قليل ، ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ، ويلتفت إليه ، ويظن في نفسه أنه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه .

٣ – الدرجة العليا وهي أن يزهد الإنسان طوعاً ، ويزهد في زهده فلا يرى زهده إذ لا يرى أنه ترك شيئاً إذ عرف أن الدنيا لا شيء ، فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ، ولا يرى نفسه تاركاً شيئًا " (٣).

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ج ٧ ص ٣٤٧ الطبعة الأولى١٩١٠هـ تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول طبعة دار الكتب العلمية بيروت، لبنان

(٢) نفسه ج٧ / ٣٧٠ وضعفه الألباني .

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي ج٤ ص٢٢٥ ، ٢٢٦ دار المعرفة – بيروت .

المبحث الأول

تلقى السائل بغير ما يتطلب

واشتمل على أربعة محاور :

المحور الأول : العدول عن الجواب المباشر إلى ما يفيده ضمنًا

المحور الثاني : الجواب عن السؤال بطريق التشبيه .

المحور الثالث : الزيادة في الجواب لنكتة .

المحور الرابع : مجئ الجواب أعم من السؤال .

المحور الاول

العدول عن الجواب إلى ما يفيده ضمناً

يلجأ الزهاد – أحياناً – إلى العدول عن الجواب المباشر للسائل إلى جواب آخر خاصة في مقام التعليم والإرشاد، والتوجيه، والوعظ ، ومن أسراره البلاغية: –

١– قصر الأمل في الدنيا ، وعدم التعلق بها ومن أمثلته : قال رجل لبعض الزهاد ألك حاجة في بغداد أقضيها ؟ قال: ما أحب أن أبسط أملى حتى تذهب إلى بغداد وتجئ "[١] فهنا يجيب الزاهد على سؤال أحدهم بجواب فيه خروج على خلاف مقتضى الظاهر لأن مقتضى الظاهر أن يجيب بنعم أوْ لا ، إلا أنه عدل إلى الأسلوب الحكيم فنزل سؤاله منزلة غيره ، وأتى بجواب يدل على قصر أمله، وعدم رغبته في الدنيا ، كما أنه يدل على التذكير بالموت لأنه يأتي دون موعد، وهذا يستوجب عدم الاغترار بالدنيا ، وعدم أمله في طول الأجل ، كأنه أراد أن يقول لا أعطي نفسى الأمل في الحياة حتى تعود قاضياً لي حاجتي، و لو أنه سلك مع السائل مسلكاً مباشراً وظاهراً في الجواب عنه لما استفاد من المعاني والأسرار التي أفادها الأسلوب الحكيم في حين أن الجواب تضمن الإجابة وهى بالنفي هنا إلا أنها ضمنية ، وإذا نظرنا إلى دقة الصياغة في الجواب نجدها في غاية الوضوح والبلاغة حيث جاءت ألفاظه معبرة عن المعنى المقصود ، فقد عبر عن مغزاه بأسلوب دقيق مؤثر ، حيث آثر التعبير بالخبر المنفي في قوله

---

(١) الأجوبة المسكتة ص ١٢٩، نثر الدر في المحاضرات تأليف منصور بن الحسين الرازي أبو سعد الآبي تحقيق خالد عبد الغني ٦٠/٧ دار الكتب العلمية بيروت – الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ –٢٠٠٤م.

– أدب الدين والدنيا ص ١١٧.

(ما أحب) بدلاً من (أكره) لأنه أدق في الدلالة على عدم الرغبة ، وأدل على عدم إرادته ذلك عن طواعية دون إكراه .

بالإضافة إلى ما يوحيه لفظ المحبة من السلاسة والقبول والرضا بخلاف الثاني الذى يدل على البغض والنفور ، وأخرج جوابه في صورة الاستعارة المكنية الجميلة التي جعلت المعنى المجرد شيئاً محسوساً ليكون أدعى للإقناع، وإزالة للشك ، لأن النفس إلى المحسوس أميل ، وذلك في قوله (أبسط أملى) حيث جعل الأمل كالفراش الذى يبسط ويطوى ، وحذف المشبه به ، وأثبت له لازماً من لوازمه في قوله (أبسط) على طريقة الاستعارة المكنية ، كما أنه بنى جوابه على الأفعال المضارعة في قوله (أحب – أبسط ، تذهب –وتجئ) للدلالة على تجدد هذه الأفعال وحدوثها ، كما أنها تؤدى إلى استحضار صورة الذهاب والمجيء في ذهن المخاطب فجاءت ملائمة للمقام.

وزاد الجواب بلاغة وجمالاً إتيانه بالطباق الذى جمع فيه بين الذهاب والمجيء في قوله : (تذهب وتجئ) وبلاغته تكمن في تصوير قصر أمله في تحقيق أمنياته، وعدم انتظاره لحين ذهابه إلى بغداد وعودته منها ، كما أنه يفيد التوضيح والتوكيد وذلك بالجمع بين الضدين (الذهاب والمجيء) فالطباق هنا اقتضاه المقام واستدعاه الحال، وجاءت الإضافة في قوله (أملى) تفيد التخصيص لأنه يعبر عن أمله هو لا غيره .

وقد حقق الأسلوب الحكيم قدراً من الإقناع والإمتاع لا يبلغه الجواب المباشر؛ لأن الجواب الحكيم يدفع السائل للتأمل، والعودة للأفضل والأنسب، ويتراجع عن حبه الشديد للدنيا، وطول أمله فيها والتعلق فيما عند الله فهو خير وأبقى.

٢- الحث على الخوف من الله والخشية منه ، ومنه قولهم " قِيلَ لِبَعْضِ الزُّهَّادِ : مَا تَقُولُ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ ؟ فَقَالَ : خَفْ اللَّهَ بِالنَّهَارِ وَنَمْ بِاللَّيْلِ. " (١)

ومقتضى الظاهر أن يكون الجواب مبيناً حكم صلاة الليل ، كأن يقول: (هي سنة عن رسول الله - ﷺ - ، أو منزلتها عند الله عظيمة أو غير ذلك مما يبين حكمها) إلا أنه عدل عن الجواب المباشر إلى الجواب الحكيم في أسلوب الأمر الصريح توجيهاً ، وتعليماً ، وإرشاداً وذلك في قوله: (خف) و(نم) لأنه أراد أن يبين له شيئاً أَوْلى من سؤاله عن صلاة الليل وهى خشية الله عز وجل فهي أصل كل طاعة ، فعلّق حكم صلاة الليل على ما يؤديه من طاعة وبر نهاراً ، فمن خشى الله نهاراً - من وجهة نظر الزاهد - أغناه عن صلاة الليل.

وعند تأمل السائل الجواب يستنتج ما يقصده، فإن كان نهاره طاعة نام ليله وإلا فعليه بصلاة الليل، فهي نافلة تزيد من درجة العبد المؤمن عند ربه، فهي تعوض ما قد يحدث من تقصير في العبادة نهاراً.

وجاءت صيغة الجواب مبنية على الإيجاز بنوعيه إيجاز القصر فهي لا تتجاوز أربع كلمات إلا أنها حوت نصائح وإرشادات كثيرة ، والإيجاز سمت المواعظ والوصايا التي يراد حفظها (وقد لفت ابن وهب إلى هذه الغاية في حديثه عن المواضع التي يحسن فيها الإيجاز ، إذ جاء منها المواعظ والوصايا التي يراد حفظها ونقلها ، ولذلك لا ترى في الحديث عن رسول الله والأئمة شيئًا يطول ، وإنما يأتي على غاية من الاقتصار والاختصار) (٢)

(١) الأجوبة المسكتة ١٣٥- أدب الدنيا والدين لأبى الحسن الماوردي شرح وتعليق محمد كريم راجح ص ١١١ دار اقرأ بيروت الطبعة الرابعة١٤٠٥هـ١٩٨٥م

(٢) البرهان في وجوه البيان لابن وهب ص٩٧ تحقيق د / أحمد مطلوب الطبعة الأولى.

وجاء بإيجاز الحذف حيث حذف الفاعل من قوله: (خف) و(نم) للعلم به ، والدلالة عليه ، ووصل بينهما بالواو لما بينهما من الاتفاق في الإنشائية فبينهما التوسط بين الكمالين .

ومما زاد الجواب الحكيم جمالاً الطباق في قوله (بالنهار) و(بالليل)، وهما نعمتان من نعم الله عز وجل على عباده ، ورحمة منه، وفى الجمع بينهما حثٌّ للمرء على محاولة المحافظة على هذه النعم ، والحرص على عدم ضياعها ، فمن فاته نهاره ، يدرك ليله ، والعكس ، هذا إلى جانب أن الطباق يثبت المعنى في النفس ، فالضد أكثر خطوراً بالبال إذا ذكر ضده .

٣- الحث على التعلق بالأمور النافعة في الآخرة ومن أمثلة ذلك أنه قيل لأبى حازم ما مالك ، قال :" شيئان لا عدم لي معهما الرضى عن الله ، والغنى عن الناس " [١].

فالسؤال هنا عما يملكه أبو حازم ، والأصل في الجواب أن يقول أملك كذا أو لا أملك إلا أنه خرج على خلاف الأصل ، وعدل عن الجواب المباشر إلى قوله شيئان لا عدم لي معهما....إلخ ، ليعلم السائل أن هذين الشيئين هما مطلب كل إنسان ، وفيه حث وترغيب على التعلق بالأمور النافعة ، والسعي لتحقيقها ، وفى الجواب إثارة وتشويق للمخاطب وذلك في قوله " شيئان " حيث قدم المسند إليه ، واشتمل على تطويل يوجب التشويق وهو قوله (لا عدم لي معهما) فإذا ذكر الخبر تمكن المعني في النفس لأن الحاصل بعد الشوق ألذ وأمكن ، يقول ابن يعقوب المغربي في ذلك : "وإما ليتمكن الخبر في ذهن السامع أي تتحقق أهمية تقديم المسند إليه لأن في ذلك التقديم ما يوجب تمكن الخبر في ذهن السامع لاشتمال المسند إليه على تطويل ما بحيث يوجب التشوق إلى الخبر، والحاصل بعد التشويق

(١) أدب الدنيا والدين ص ١٣٠ ، نثر الدر في المحاضرات ٦٣/٧.

ألذ وأمكن في النفس [١] وقد صاغ الزاهد جوابه صياغة دقيقة كل لفظة فيه في موضعها اللائق بها، ولها دلالتها في أداء المعني المقصود ، ومن ذلك تنكير المسند إليه في " شيئان " الذي أفاد التعظيم أي شيئان عظيمان الأهمية وهما" الرضى عن الله ، والغنى عن الناس " وهذا يشير إلى منزلة هذين الأمرين ، وبيان فضلهما ، وعظم مكانتهما ، وعبر بهما بصيغة المثنى في قوله " شيئان " لترتيب الأفكار وتنظيمها ، وإصابة الغرض ، وقد جعله الإمام عبد القاهر من النمط العالي الذى لا ترى سلطان المزية فيه تعظم في شيء عظمه فيه [٢] ، وتحقق هذه الفائدة لأنه جاء فطرياً غير متكلف ، وتطلبه المعنى ، فالتآخي بين الألفاظ أحدث تآخياً في المعنى مما بعث في القلوب ابتهاجاً وجمالاً برؤية الأشياء متناسقة كحبات اللؤلؤ ، وأول هذين الشيئين الرضى عن الله ، وذلك بالحمد على نعمائه ، والرضا بقضائه ، وآخرهما الغنى عن الناس ، ووصل بينهما بالواو لما بينهما من التلاحم فهما خبريتان لفظاً ومعني فبينهما التوسط بين الكمالين .

ومن دقة الجواب وروده مقيداً بالجار والمجرور في قوله " الرضى والغنى " الذى أفاد التخصيص فلم يرد مجرد الرضى والغنى ، ولكنه أراد الرضى عن الله خاصة ، وكذلك الغنى عن الناس ، وجاءت صياغة الجواب الحكيم مبنية على الإطناب بصورة التفصيل بعد الإجمال ، والتوضيح بعد الإبهام ، وذلك لأن المقام للتعليم والتوجيه فيحسن فيه التوضيح ، فقد ذكر المعنى مجملاً في قوله " شيئان " ثم ذكر مفصلاً في قوله " الرضى عن الله ، والغنى عن الناس " وذلك؛ ليتمكن المعنى في النفس فضل تمكن ،فإن المعنى إذا ألقى على سبيل التفصيل والإيضاح،

(١) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح١/٣٩١دار السرور بيروت لبنان ، بدون تاريخ .
(٢) دلائل الإعجاز ص ٩٥

فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك ، فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن، وكان شعورها به أتم [١].

ولم يأت بالواو للربط بين جملتي :" شيئان والرضى عن الله" لأن الثانية " الرضى عن الله " تفسير وبيان للجملة الأولى " شيئان " ففي قوله شيئان " إبهام وإجمال فجاءت جملة " الرضى عن الله " مفسرة وموضحة لهذا الإبهام فبينهما كمال الاتصال .

ولا شك أن العدول بالجواب على خلاف مقتضى الظاهر يحقق قيمة بلاغية فنية تكمن في أمور منها التأثير في المتلقي ، وهذا ناتج عن الأثر البلاغي للأسلوب الحكيم في نفسية السائل ، فهو أسلوب له قدرة كبيرة على تعميق الفكرة في نفس المتلقي ، وتصحيح المفاهيم ،وحسن التخلص من المواقف الصعبة يقول السكاكي: " إن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور ، وأبرزه في معرض المسحور ، وهل ألان شكيمة الحجاج لذلك الخارجي، وسل سخيمته حتى آثر أن يحسن على أن يسئ غير أن سحره بهذا الأسلوب " [٢]

ومما ورد في هذا الغرض البلاغي أنه قيل لمحمد بن واسع ألا تتكئ؟ قال: " تلك جلسة الآمنين " [٣].

السائل هنا يطلب منه برفق أن يجلس متكئاً ، فجاء الجواب على خلاف الظاهر فكان الأصل أن يقبل أو يرفض ، إلا أنه عدل عن ذلك بجواب فيه بيان أن

---

(١) الإيضاح من بغية الإيضاح ١١٧/٢ الطبعة الثانية عشرة -١٤٢٠-١٤٢١هـ ١٩٩٩-٢٠٠٠ م مكتبة الآداب

(٢) مفتاح العلوم ص ٣٢٨ ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية١٤٠٧-١٩٨٧

(٣) الأجوبة المسكتة ص ١٣٠ .

الاتكاء من صفات الآمنين[١]، فهم يجلسون بهذه الهيئة، وهو ليس منهم ، لأنه في مقام خوف وخشية من الله عز وجل ، وبلاغة هذه الأسلوب تكمن في التعليل بذكر السبب المانع من الفعل ، فيكون بين يدى المخاطب الحكم معللاً بالأدلة، ومؤيداً بالبرهان فلا يكون هناك مجال للشك أو الجدل بل الإذعان والتسليم، وهذا يدل دلالة واضحة على قوة إيمان هؤلاء الزهاد، وخشيتهم لله عز وجل حتى يظهر ذلك في جلوسهم ،وبالتالي النفور من الدنيا ، وعدم الاغترار بما فيها من نعيم زائل.

ففي جوابه ما يتضمن إجابة السؤال ولكن بطريق غير مباشر ، ومن بلاغة هذا الجواب الحكيم أنه جاء على صيغة اسم الإشارة البعيد إشارة إلى تعظيم شأن الاتكاء أي إن الاتكاء له منزلة عظيمة ، توحى بالثقة والأمان وهى بعيدة عنه فنزل بُعْده عن النفس منزلة بعد المسافة لأنه يخاف من الوقوف بين يدى الله ، وجاءت الإضافة في قوله " الآمنين" للتخصيص ، وفى التعبير بصيغة اسم الفاعل " آمنين " إيجاز حيث دل على الحدث وصاحبه دفعة واحدة كما أن فيه دلالة على الثبوت والدوام، فهو أدل على تمكنهم منه وملازمته لهم ، فهو أدق وأدل على الأمن لهؤلاء من التعبير بالجملة الفعلية بقوله " يأمنون" لأنها تدل على التجدد والحدوث .

وفى عبارة الزاهد إيجاز القصر فقد أدى المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة بدون حذف ، وإيجاز القصر له قيمة بلاغية كبيرة ، ولا يستطيع التعبير به إلا من أوتى موهبة في فن القول ، فقد عبر بالألفاظ القليلة عن معانى كثيرة فهي لا تتجاوز بضع كلمات ، ومع ذلك حوت كثيراً من المعاني التي تدل على أن جلوس الاتكاء هي من الصفات الخاصة بهؤلاء الذين يتمتعون بالأمن من لقاء الله، وللأمن معانى متعددة الأمن النفسي والأمن البدني ، أما هذا الزاهد فلا يندرج معهم؛

(١) الأجوبة المسكتة ص ١٣٠ .

لأنه يخاف الوقوف بين يدى الله ، ويخشى هذا اليوم ولذا فهو لا يجلس جلستهم فتأتى جلستهم تعبر عن حالتهم تجاه الموقف العظيم.

ومن ذلك قول رجل لعطاء: أزكى مالي ؟ قال: إن كان طيباً وإلا فلا تعنى[١].

السائل ـ هنا ـ يسأل عن زكاة ماله، وعدل به الزاهد إلى الجواب الحكيم فأجابه بغير ما يتوقع. لأن الأصل أن يجيبه بالإثبات أو النفي ، إلا أنه أجابه بقوله :" إن كان طيباً " تنبيهاً على أنه الأولى بحاله ، والأهم له ، فهو يريد أن يلفت انتباه السائل إلى أمور أهم مما يسأل عنها ، وهو الحث على الكسب الطيب ، ففيه حث على تحصيل المال الحلال الطيب ، وهذا ما دعانا إليه ديننا الحنيف ، لنلقى القبول والرضا من الله سبحانه وتعالى ففيه زيادة إفهام ، ودفع الإلباس ، وصاغ جوابه في أسلوب الشرط في قوله " إن كان طيباً " للإثارة والتشويق ، ومما اتسم به هذا الجواب الإيجاز البليغ حيث حذف جواب الشرط من قوله " إن كان طيباً " والتقدير أخرج زكاته ، وهذا للإيجاز مع العلم به من قرينة السؤال.

وفى قوله " وإلا فلا تعنى " حذف لفعل الشرط ، والتقدير وإن لم يكن طيباً فلا تعنى ، وهذا الحذف أيضا للعلم به لأن المال إن لم يكن حلالاً فلا فائدة في زكاته ، لأن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان طيباً ، فجاء الحذف ملائماً للمقام مناسباً للغرض ، ومن خصائص التراكيب في جوابه استخدامه " إن " التي تفيد الشك لأنه لا يدرى هل ماله من حلال أو غيره ، فهي المناسبة للغرض بخلاف " إذا" فهي تفيد التحقيق واليقين.

كما أن تعبيره بالماضي في قوله " كان " يدل على مضى الحدث وانتهائه، فالمال المفروض فيه الزكاة قد تم تحصيله بالفعل.

---

(١) الأجوبة المسكتة ص ١٣٦

كما أنه وصل بين جزئي الجواب بالواو لما بينهما من الاتصال، والمناسبة والاتحاد فهما مقولا القول هذا بالإضافة إلى اتفاقهما في الخبرية، فبينهما التوسط بين الكمالين.

وعند النظر فيما احتواه هذا الجواب من دقائق بلاغية يتبين أن الزهاد في أجوبتهم يتسمون بالدقة في اختيار ألفاظهم التي تعبر عن معانيهم ، فكانوا يختارون اللفظ الدقيق للمعنى المقصود ، كل هذا بفطرتهم التي تدل على رغبتهم عن الدنيا ، وطلبهم للآخرة وتمسكهم بما دعانا إليه الإسلام .

المحور الثاني

الجواب عن السؤال بطريق التشبيه

من صور الأسلوب الحكيم مجيء الجواب عن السؤال بطريقة التشبيه والتمثيل لغرض إقناع السائل، وتأكيد المعنى، وقد ورد هذا في أجوبة الزهاد جامعاً بين الإقناع والإمتاع ومن أسراره البلاغية:

(١)الترغيب في فعل الطاعات، والتنفير من المعاصي، ومن أمثلته ما قيل لأبى عامر كيف القدوم على الله؟ قال : أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله مسروراً، وأما المسيء فالعبد الآبق يقدم على مولاه واجما خائفاً [١] يجيب ابن عامر عن كيفية قدوم العبد على ربه عز وجل يوم القيامة ، وكان مقتضى الظاهر أن يصف القدوم إلا أنه أراد توضيح الكيفية التي يقدم بها ، وأنها تختلف باختلاف القادم إن كان محسناً أو غيره ، إذ ليس للقدوم كيفية مخصوصة فلجأ إلى التشبيه لإقناع مخاطبه حيث شبه حال العبد المؤمن المحسن بحال الإنسان الغائب عن أهله حين يرجع إليهم يكون مسروراً فرحاً بلقائهم، وذلك للترغيب في فعل الخير ، والغرض منه تحسين المشبه ، وأنه يكون في حالة حسنة ، وصور الإنسان العاصي المسيء بالعبد الهارب من سيده، حين يقبل عليه يكون في قمة الخوف والرعب ، وذلك للتنفير من المعصية ، وتوضيح سوء العاقبة ، وبالغ في جعل المشبه عين المشبه به فحذف أداة التشبيه ، ولم يكتف بذلك بل قيده بالوصف في قوله " الآبق " الذى يدل على سوء فعله وهو أنه هارب من سيده ، وذلك يجعل الإنسان المسيء في قمة الخشية والخوف من لقاء ربه ، نتيجة ما فعله ، وما ارتكبه من عصيان ، فقد جعلنا نشاهد الموقف وكأنه أمام أعيننا ، فهذا إقناع ما بعده

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٦ / ٣٧٠ ، نثر الدر في المحاضرات ٥٧/٧ .

إقناع ، والغرض من ذلك التنفير من ارتكاب المعاصي يقول ابن الأثير عن وظيفة التشبيه :" وأما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثلث الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به ، أو بمعناه وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه ، أو التنفير عنه ، ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها ، كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً حسناً يدعو إلى الترغيب فيها "[١] ، فالتشبيه لون من ألوان التعبير الممتاز الأنيق تعمد إليه النفوس بالفطرة حين تسوقها الدواعي إليه ، يستوى في ذلك العرب والعجم والخاصة والعامة ، فهو من الصور البيانية التي لا تختص بجنس ولا لغة ، لأنه من الهبات الإنسانية والخصائص الفطرية ، والتراث المشاع بين الأنواع البشرية جميعاً ، ذلك لأن أساسه هذه الصفات المشتركة أو المتشابهة أو المتضادة التي يراها الإنسان في الأشياء ويترتب على ذلك استساغته استعمال الألفاظ بعضها مكان بعض تجوزاً " . [٢]

هذا إلى جانب ما في الجواب من خصائص التراكيب كتقديم للمحسن علي المسيء تفاؤلاً للترغيب في الطاعات التي تؤهله للاتصاف بهذه الصفة ، كما جاء التعبير بالمضارع في قوله " يقدم " استحضاراً لصورة الإنسان عند قدومه على ربه فجاءت مناسبة للحال.

كما أن الإضافة في كل من " أهله " و" مولاه " للتخصيص؛ لأن القدوم على صورته هذه يكون على أهله ، خاصاً بهم لا غيرهم ، وكذلك قدوم العبد يكون على مولاه لا غير، فالأول يكون في غاية الشوق والسرور واللهفة ، والآخر يكون في

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، حققه وعلق عليه محمد محمد عويضة ، المجلد الأول ص ٣٧٨.

(٢) فن التشبيه ، على الجندي ج ١/ ص ٤٣ ، نهضة مصر ، الطبعة الأولى ١٩٥٢م .

قمة الخوف والزعر ، وقد حوى الجواب محسناً معنوياً زاد المعنى جمالاً وهو المقابلة حيث جمع بين معنيين متوافقين وضديهما وهما المحسن والمسيء . فقدوم كل منها يضاد الآخر ، إرشاداً للسائل إلى الشيء وضده ، ليحرص على النافع، ويتجنب الضار ، وللمقابلة فضل في إظهار المعاني في صورة أبين للمتلقي إذ ذكر الضد أثر في بيان ما في الآخر من محاسن أو مقابح ، فضلاً عن استكمال أجزاء الصورة، وتفصيل عناصرها فلا يخلو حال المرء يوم القيامة عند قدومه على الله عز وجل من إحدى هاتين الحالتين .

ويلاحظ أيضاً بناء جوابه على الأسلوب الخبري في قوله " أما المحسن " الدال على التفصيل ، وذلك لجذب انتباه المخاطب ، وحثه على القيام بالأعمال الصالحة، والترغيب فيها ، وهذا هو الغرض الرئيس من حياة الزهاد ، ومن دقة أبى عامر وبلاغته إتيانه بالوصل في موضعه فوصل بين جملتي " أما المحسن " وأما المسيء لاتفاقهما في الخبرية لفظاً ومعنى ، ولوجود المناسبة بينهما فهما مقولا القول . فالزاهد – كما ترى – قد اختار ألفاظه بعناية فائقة ، وأتى في كل جواب بما يناسبه ، وهذا يدل على فكر وبصيرة ، ودراية باللغة والأدب ، ونبوغ وتفوق أدبى عال .

المحور الثالث

الزيادة في الجواب لنكتة

وردت بعض أجوبة الزهاد بأكثر مما يتطلبه السائل، وهذا مراعاة لحال المخاطبين ولأسرار بلاغية منها : –

١– الحث على التنفير من الحياة الدنيا ، وعدم الانغماس في ملذاتها ومن ذلك :

قيل لزاهد : " كيف سنحت نفسك أن تترك الدنيا قال : أيقنت أنى أخرج منها كارهاً فأحببت أن أخرج منها طائعاً " (١)

والسؤال هنا عن سبب رغبته عن الدنيا، وعزوفه عنها ،والجواب لم يأت على مقتضى الظاهر، وجاء على طريقة الأسلوب الحكيم للعظة والعبرة بأن الموت لاحق به لا محالة ، وأنه سرعان ما يترك الدنيا ، فآثر أن يتركها طواعية ، بدلاً من تركها كارهاً ، وهذه دعوة توجيه ونصح للسائل بعدم الاغترار بالدنيا، وشهواتها ، لأنه لا مفر من الموت ، وزوال كل ما فيها من مغريات .

وجاءت خصائص النظم تبرز الهدف من الأسلوب الحكيم في قوله " أيقنت" وإيثاره فعل اليقين دون الظن للدلالة على أن علمه بفناء الدنيا وزوالها أمر محقق، متيقن منه ، وتعبيره بالماضي يدل على أن ذلك العلم واليقين بفناء الدنيا قد حدث وتم فعلاً ، كما أن التوكيد " أنى " لدفع ما قد يساور المخاطب من شك في هذا الخبر ، وتقرير أن الخروج من الدنيا أمر لا مهرب منه ، ولم يصرح بلفظ الموت إلا أنه عبر عنه بطريقة الكناية في قوله " أخرج منها كارهًا " لما في التصريح به من

(١) أدب الدنيا والدين ص ١٢٨ – الأجوبة المسكتة ص ١٢٨ – وفيات الأعيان وأنباء وأبناء الزمان لأبى العباس شمس الدين محمد بن أبى بكر بن خلكان ت ٦٠٨ – ٦٨١ هـ – ج ٢ / ٤٢٢ تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت .

مرارة وتشاؤم، فعدل إلى الكناية لما فيها من التعبير عن المعنى المقصود بلفظ حسن جميل .

وعطف فعل " أحببت "على " أيقنت" ب" الفاء" لأن زهده في الدنيا وعدم تعلقه بها ، وحبه الخروج منها طائعًا جاء ذلك سريعاً على الفور من غير تراخ ، عقب علمه بالخروج كارهاً "

والتعبير بقوله " أحببت " يدل على أن عزوفه عن الدنيا ، وتركه شهواتها عن رضا وطواعية لا عن إجبار ، والمجيء به ماضياً للدلالة على انتهاء وقوع الحدث.

وفى هذا الجواب دعوة إلى التأمل ، وتوجيه وإرشاد إلى عدم التعلق بالدنيا لأنه إذا كان المرء لا محالة خارج من الدنيا فالأَوْلى ألا يتعلق بها فخروجه طائعاً خير من خروجه كارهاً.

وقد جاء الأسلوب الحكيم بأسلوب الطباق بين " طائعاً وكارهاً " جامعاً بين الشيء وضده فيحرص على اختيار ما ينفعه، والأَوْلى له ، وترك ما سواه ، فكل هذه الدقائق والأسرار جعلت الجواب محققاً الغاية من إقناع السائل وإمتاعه .

٤- إرشاد السائل إلى الانشغال بالمهم والاستعداد له ومن ذلك ما ورد في أجوبتهم

أنه أراد قوم سفراً فحادوا عن الطريق ، وانتبهوا إلى راهب في ناحية ، قالوا قد ضللنا فكيف الطريق؟ قال لهم :ههنا وأومأ بيده إلى السماء [1] السؤال هنا عن طريقهم الذى ضلوا عنه فلم يعرفوه ، فجاء الجواب على خلاف سؤالهم لأن الظاهر أن يجيبهم بتعيين الجهة التي توصلهم إلى طريقهم ، إلا أنه نزل سؤالهم منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأَوْلى والمهم له ولذا قال (ههنا) وجاءت

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣٦٨/٦ .

الإشارة إلى السماء لبيان أن اللجوء إلى الله ، والاتجاه له بعبادته حق العبادة وهو الطريق الصحيح الذى ينبغي أن يسأل عنه فهو الأَوْلى بالسؤال والأهم.

فالغرض البلاغي من هذا الجواب الحكيم إرشاد السائل ، ولفت انتباهه إلى أن طريق الله هو الأحق بالاتباع ، فعليه التزود بالطاعات ، والانشغال بالأسباب الموجبة لرحمته جل وعلا ، وقد صاغ الزاهد جوابه صياغة مناسبة للمقام ، مؤدية للغرض ، فجاءت بنية جوابه على الأسلوب الخبري في قوله (ههنا) فأفادت النصح والتوجيه ، كأنه يريد أن يعظهم ، ويوجه سلوكهم إلى أن الطريق إلى الله هو الأوْلى أن ينشغلوا به ، وفى هذا حث على الترغيب في الطاعات ، والاستعداد للقاء الله عز وجل.

كما أن حذف المسند إليه من قوله "ههنا " أي الطريق جاء لتحقيق الغرض المقصود وهو المبادرة إلى المطلوب ، والمسارعة إليه ، هذا بالإضافة إلى أن من مقتضيات الحذف الإيجاز والاختصاص يقول أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى " من المعلوم أن للحذف أغراضه التي لا يغنى الذكر غناءه فيها ، وأن للذكر أغراضه التي لا يغنى الحذف غناءه فيها ، وأن البلاغة مراعاة المقامات والأحوال فالذكر في موطنه بليغ مطابق، والحذف في موطنه بليغ مطابق" (١)

ووصل بين جملتي "ههنا " " وأومأ " لما بينهما من تناسب في المعنى، بالإضافة ‘إلى أنهما خبريتان والمسند فيهما واحد فكان العطف مناسباً للحال ، ووسيلة من الوسائل البلاغية التي جاءت مناسبة للمقام ، وبالجملة فالجواب الحكيم . هنا . من روائع الإيجاز الذى حقق الفائدة مع المتعة .

(١) خصائص التراكيب ، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ص ٣٥ ، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م .

نواصل الرحلة مع الزهاد وأجوبتهم ومنها: قيل لبعض الزهاد: كيف أنت ؟ قال: نعمة من الله، وثناء من الناس لم يبلغه عملي [١]

فالسؤال هنا عن حاله، ويأتي الجواب على طريقة الأسلوب الحكيم في قوله " نعمة من الله وثناء... " المتمثل في صورة الخبر المفيد للامتنان والشكر ولم يكتف بذلك، بل سارع إلى ذكر النعم فحذف المسند إليه من قوله (نعمة) والتقدير (أنا) للاختصار، والاحتراز عن العبث، والاعتماد على قرينة السؤال وجاء الحذف ملائماً للمقام. وتنكير المسند في (نعمة) و(ثناء) للتعظيم أي نعمة عظيمة ، وثناء عظيم ، وهذا يدل على الاعتراف بفضل الله عز وجل على ما آتاه من نعم ، وكذلك للناس على ثنائهم له ، ثم أتبع الاعتراف باعتراف آخر وهو أن ما فيه من نعم من الله وثناء من الناس) لم يكن نتيجة عمله بل كان ذلك منة وكرماً وتفضلاً منه سبحانه أولاً ، ثم من الناس وذكر ذلك لنكتة بلاغية وهو الاحتراس وهو نوع من أنواع الإطناب فائدته دفع توهم غير المراد أي لئلا يتوهم المخاطب ما فيه من نعم دافعه عمله الطيب فاحترز بقوله (لم يبلغه عملي) لأن ذلك كان إكراماً من الله عز وجل ، وإضافة (نعمة) إلى لفظ الجلالة ، والثناء إلى الناس تعبير في غاية الدقة حيث أسند كل شيء إلى ما يليق به ، وجعله صاحبه فالله سبحانه هو المنعم بها جميعها ، أما الثناء والمدح فهو من أفعال البشر ، وفى مقدورهم ، وفى تقديم النعمة على الثناء دلالة على شكر الله أولاً فهو الأحق بالشكر لأنه صاحب المنة لذا فهو يأتي في المرحلة الأولى ، والثناء يأتي في المرحلة الثانية لأن شكر الناس يأتي بعد شكر الله عز وجل فجاء تعبيره مطابقاً للواقع ، ملائماً للمقام ، ووصل بين قوله " نعمة من الله وثناء " بالواو لما بينهما من ترابط وتناسب فهما مقول لقائل واحد ، كما أن التعبير بـ (نعمة وثناء) يفيد الثبوت والدوام ، وعند التأمل في جواب

(١) الأجوبة المسكتة ص ١٣٨ .

الزاهد يلاحظ أنه قد أقنع سائله عن طريق الألفاظ ، فقد جاءت ألفاظه معبرة أدق تعبير عن حاله من الرضا والسعادة موضحة مدى شكره وحمده خاصة أن ما وصل إليه ليس إلا منة وكرماً .

من كل ما سبق يتضح أن الزهاد –في القرنين الأول والثاني الهجريين –كانوا يتمتعون بملكة وموهبة لغوية وبلاغية لا يصل إليها إلا ذوو القريحة الصافية، وأنهم يجيدون التعبير المناسب في الموقف المناسب.

ومن ذلك قولهم : قيل لزاهد : كيف أصبحت ؟ قال : نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا[1] فالسؤال هنا عن حال الزاهد ، وجاء جوابه على خلاف ما يتوقعه المخاطب، لأن الأصل أن يصف حاله صحيحاً أو سقيماً ، أو عبارة غير ما ذكره إلا أنه عدل عن ذلك إلى قوله " نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا " فأجاب سائله بغير ما يتوقع والسر في هذا العدول تنبيهه بما هو أهم له ، وأولى بحاله في الدنيا والآخرة، فصاغ جوابه في صورة الأسلوب الخبري المتعدد الذى أفاد معنى بلاغياً فقوله " نأكل أرزاقنا " اعتراف بالامتنان من الله – عز وجل – بجميع النعم التي لا تعد ولا تحصى ، كما أن قوله " ننتظر آجالنا " خبر أفاد الإيمان بالقضاء والقدر، والاستسلام والخشوع لما يريده الله عز وجل من عباده ، كما أن فيه إشعاراً بزوال الدنيا ، وحتمية الموت وملاقاة الله عز وجل ، فقد ضم هذا الجواب بين دفتيه كل ما يدل على الرضا والسعادة في الدنيا والآخرة ، هذا بالإضافة إلى خصائص النظم في الجواب ففي بناء جوابه على صورة الجملة الفعلية المضارعية " نأكل وننتظر " تجدد الرزق وانتظاره الأجل من الله عز وجل وحدوثه آناً إثر آن ، كما أن فيه استحضار صورة الموت وانتهاء الأجل ، وفى إيثاره التعبير بنون الجمع في قوله "

(١) الأجوبة المسكتة ص ١٣٨ ، نثر الدر جـ ٧ ص ٧٢ .

نأكل وننتظر " لإفادة العموم لأن الرزق وانتهاء الأجل ليس خاصاً به وحده ، وإنما شامل للبشر جميعاً .

كما أن الجمع في قوله " أرزاق – آجال " للتكثير، والإضافة في قوله " أرزاقنا – آجالنا" للتخصيص ، لأن الإنسان لا يأخذ إلا رزقه وأجله هو خاصة لا غيره .

وفى ربط الجملتين: نأكل وننتظر " بالواو إشارة لما بينهما من الترابط والمناسبة فهما لقائل واحد، والاتفاق في الخبرية لفظاً ومعنى، فما أدقه من تعبير! ومع ما اتصف به من إيجاز بليغ إلا أنه أدى الهدف المقصود ، وحقق الغاية المنشودة .

المحور الرابع

مجيء الجواب أعم من السؤال

يلجأ الزهاد أحياناً إلى الإتيان بالجواب أعم من السؤال ، وذلك لأسرار بلاغية منها:

١- الاستدلال الموجب للتقرير بحقيقة الدنيا، والتذكير بالموت، والاستعداد له، ومن أمثلته: قيل لزاهد ما بالك تدمن المشي على عصا، ولست بكبير ولا مريض، قال: لأعلم أنى مسافر، وأنها دار قلعة، وأن العصا من آلة السفر [١]

يستغرب السائل هنا ويتعجب من مشي هذا الرجل على عصا ، مع عدم الحاجة إليها ، لكونه غير كبير السن ولا مريض ، ويسأل عن سبب ذلك ، وجاء الجواب على خلاف مقتضى الظاهر لأن الأصل أن يجيبه بسبب اعتماده على العصا ، إلا أن ما ذكره لا يعد سبباً لذلك ، ففي جواب بقوله " لأعلم أنى مسافر ، وأنها دار قلعة "، إشارة إلى تقديم النصيحة الثمينة ، وليعلم مخاطبه أن الدنيا قصيرة ، والإنسان غريب فيها مهما طال عمره لابد من السفر دون عودة ، فعليه أن يستعد لذلك اليوم الذى يترك فيه الدنيا، وعلى هذا يكون تعبيره بالعصا رمزاً للأعمال الصالحة التي ينبغي للإنسان أن يعدها لنفسه في الدنيا ليتكئ عليها ، ويأنس بها في الآخرة هذا بعد فضل الله سبحانه وتعالى علينا ،لأنه لا يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله وفضله.

هذا بالإضافة إلى بلاغة التركيب في الجواب كتعبيره بقوله " لأعلم أنى مسافر" فبنى جوابه على الأسلوب الخبري المتضمن الحث على الاستعداد للموت، والتحذير من الاغترار بالدنيا .

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣٢٣/٦ ، دار الكتاب العربي – بيروت .

واستخدام أسلوب التعليل في قوله " لأعلم " وتعلل باللام حتي يبين السبب والعلة التي من أجلها يتكئ على عصا فيقنع مخاطبه بما يلقيه من أخبار ، ويلفت انتباهه إلى أهمية هذا الأمر ، وهو التزود بالأعمال الصالحة والاستعداد لما بعد الموت ، وجاءت جملة الجواب اسمية مؤكدة في قوله " أنى مسافر " للدلالة على الثبوت والدوام ، فالجملة الاسمية تفيد التوكيد وتفيد الثبوت والدوام ، وإنما كانت الجملة الاسمية مؤكدة لأنها تفيد بأصل وضعها ثبوت شيء لشيء ، وتفيد بالقرائن الدوام والاستمرار[١] وأكدها بـ "أن " فكأنك كررت الجملة والتكرار توكيد لفظي [٢] وذلك لإزالة ما في ذهن المخاطب من إنكار لهذا الحدث ، وجاء التعبير بالاستعارة في قوله (مسافر) ليدلل على حتمية الرحيل ، وإن طالت الرحلة ، فالسفر هنا معناه الموت ، وقد أبرزت الاستعارة الأمر المعنوي العقلي في صورة حسية تتملاها العين، " ومن جمال الاستعارة إنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية .... وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون...[٣]

ومن بلاغة النظم في الجواب مجيء التوكيد بـ" أن " مكرراً وهذا التكرار يؤكد رغبته الملحة في إقناع المتلقي بأن الموت لابد منه فينبغي للاستعداد له ، فجاء التوكيد في قوله (أني مسافر) للفت انتباه المخاطب ثم جاء ثانية (وأنها دار قلعة) للتأثير فيه وتحريك مشاعره تجاه هذا الخطب الجلل وهو الموت وأخيراً (وأن العصا

(١) البلاغة الاصطلاحية د/ عبده عبدالعزيز قلقلية، ص١٣٤ دار الفكر العربي – الطبعة الثالثة ١٤١٢-١٩٩٢

(٢) السابق ١٣٥

(٣) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ص ٤٣ – قرأه وعلق عليه محمود شاكر مطبعة المدني، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩١م.

من آلة السفر) يسعى لإقناع المخاطب ، فلكل توكيد هدفه وغايته ، يقول شيخنا د/ أبو موسى : " قد يكون داعى التأكيد هو رغبة المتكلم في تقوية مضمون الكلام عند المخاطب وتقريره في نفسه " [١] ، وهذه المؤكدات ساعدت على إبراز مراده ، وإثباته بما لا يدع مجالاً للشك أو الإنكار لحقيقة الموت التي لا ينكرها أحد ، كما أنه بالغ في وصف زوال الحياة الدنيا وبيان حقارتها حيث نكّر لفظ (دار) للدلالة على التحقير ، كما أن التخصيص بالوصف في قوله (قلعة) للدلالة على التنفير من الاستغراق في ملذاتها، لأنها سرعان ما تزول.

وجاء إتيانه بالوصل بين هذه الجمل الثلاث في قمة البلاغة وذلك لما بينهما من تناسب ، وألفة وترابط فجميعها جمل خبرية لفظاً ومعنى، وقول لقائل واحد.

والفصل والوصل أحد فنون البلاغة ، صعب المسلك ، دقيق المأخذ ، لا يعرفه على وجهه ، ولا يحيط علما بكنهه إلا من أوتى في فهم كلام العرب طبعاً سليماً ، ورزق في إدراك أسراره ذوقاً سليماً صحيحًا [٢].

٢- الترغيب والحث على المداومة على طاعة الله - عز وجل - ومن ذلك (قال ابن المبارك لراهب : متي عيدكم يا راهب؟ قال: (كل يوم لا أعصي الله فيه فهو عيد)[٣]

فالسؤال هنا عن زمن العيد ، فالأصل أن يكون الجواب بتحديد وقت أو زمن معين بأن يقال : وقت كذا أو زمن كذا إلا أنه عدل بجوابه إلى خلاف الظاهر ، وأتى بجواب عام تنبيهاً إلى الأَوْلى والأهم وهو الابتعاد عن معصية الله فمفاد جوابه أنه

---

(١) خصائص التراكيب ١٣٠

(٢) الايضاح من بغية الايضاح ٥٦/٢

(٣) الأجوبة المسكتة ص ١٣٦ ، أدب الدنيا والدين ص ١٢٢ ، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشرى ٣٢/١ ، تحقيق عبد الأمير مهنا ، منشور مؤسسة الأعلمى بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ /١٩٩٢ م.

لا عيد إلا بالبعد عن المعاصي ، وجوابه يجمع في بلاغته بين الإيجاز وزيادة البيان وذلك للحث والترغيب في فعل الطاعات، وذلك في قوله (كل يوم لا أعصي الله فيه فهو عيد) فنزل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأولى والأجدر ، فقد ثبت في ذهن السائل عندما سمع الجواب أن عدم فعل المعاصي هو يوم العيد أي يوم كان ذلك ، فالمطلوب الأهم هو عدم فعل المعصية ، ومن دقة الصياغة في الجواب الحكيم إتيانه بأسلوب القصر بتعريف الطرفين في (فهو عيد) تأكيداً ومبالغة في أن اليوم الذى لا يصدر فيه عصيان لله عز وجل هو العيد لا غيره، وهو من قبيل قصر الموصوف على الصفة قصراً ادعائياً علي سبيل المبالغة .

ومنها أيضاً مجيء الخبر خالياً من التوكيد ملائمة لحال السائل فهو خالي الذهن من مضمون الخبر، فلا يراوده شك أو إنكار له، وفى تقديمه المسند إليه (كل) لإرادة العموم والشمول.

وآثر ابن المبارك التعبير بقوله (لا أعصي) دون (أطيع) مع أن المغزى واحد ، لأنها تدل دلالة واضحة وصريحة على عدم معصية الله عز وجل وهو الهدف من جوابه لذا كانت أدق في أداء غرضه.

ولِمَ اشتمل عليه الجواب من نكات بلاغية في ألفاظه وتعبيراته استطاع أن يحقق الغاية من الإبداع والإمتاع لدى المخاطب على طريقة الأسلوب الحكيم.

وما ورد على طريقة الأسلوب الحكيم من أجوبتهم للترغيب في الطاعات، والتنفير من الانغماس في الدنيا، والتحذير من الإعراض عن الآخرة قولهم :

قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم: ما لنا نكره الموت ؟ قال: لأنكم أخربتم أخرتكم ، وعمرتم دنياكم، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب [١].

فمقتضى الظاهر أن يذكر سبباً من أسباب كراهيتهم للموت غير ما ذكر إلا أنه عدل عنه ، ليلفت انتباههم إلى غفلتهم ، وعدم استعدادهم للآخرة ، وذلك لأنهم أعرضوا عما ينفعهم ، واتبعوا كل غي وضلال فخربوا آخرتهم ، وعمروا دنياهم ولذلك كرهوا الموت لأنه ينقلهم من العمران إلى الخراب.

فجاءت بنية الجواب على التعليل في قوله (لأنكم أخربتم آخرتكم ...) حيث أتي بـ (لأن) وهي تستعمل لتبرير الفعل كما تستعمل لتبرير عدمه [٢] ، وأسلوب الفصل يعتبر رابطاً بين الحجة وهى (تخريب الآخرة وعمران الدنيا) والنتيجة هي كراهية الموت وكأنه يريد أن يلفت اهتمام السائل إلى ما هو أهم وأنفع وهو عدم الانشغال بالأمور الدنيوية، وعدم الانغماس فيها على حساب الدار الآخرة ، بل عليه أن يعمل لآخرته لأنها الباقية – كما يعمل لدنياه أيضا.

وانتقل من أسلوب التعليل إلى نتيجته وعلته وربط بينهما بفاء السببية في قوله (فكرهتم) وكأنه يريد أن يقول : إنه من أجل تخريبكم الآخرة ، وعمرانكم الدنيا كرهتم أن تنتقلوا من الدنيا التي عمرتموها إلى الآخرة وما فيها من خراب ، وهذا التعبير كناية عن انشغالهم بالدنيا، وأمورها الزائلة ، وإهمالهم الآخرة وعدم الاستعداد لها فقوله (أخربتم) يدل على مدى التفريط في الأعمال الصالحة، وأنهم لم

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ١٣١عيون الأخبار ٣٧٠/٦- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تأليف: الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني المتوفي (٤٣٠هـ)– دار الفكر ١٤١٦هـ– ١٩٩٦م

(٢) استراتيجية الخطاب مقاربة لغوية تداولية تأليف عبدالهادي بن ظافر الشهري ص٤٧٨ دار الكتاب الجديد– بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٤

يقدموا شيئًا ينفعهم ، فالإنسان إذا انشغل عن آخرته بدنياه ، وخلا عمله مما ينفعه في أخراه فقد خرب آخرته.

كما جاءت المقابلة الجميلة في قوله:[أخربتم وعمرتم ، والعمران والخراب] التي استدعاها المعنى وطلبها ، لم تكن متكلفة ولا مقصودة لذاتها ،هذا إلى جانب إفادتها العموم بذكر الشيء وضده فأضفت على المعنى حسناً وبهاءً.

ومن بلاغة التراكيب في جوابه إتيانه بالوصل بين جملتين (أخربتم وعمرتم) لما بينهما من تناسب واتفاق في الخبرية لفظًا ومعني ، وكما ترى عبر بجواب أعم من سؤال السائل حتى يلائم الحال النفسية للمخاطب ، ولا يدع للشك مجالاً في ذهنه ، والإتيان به على هذه الصورة من البلاغة ، فهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

المبحث الثاني
تلقي المخاطب بغير ما يترقب

واشتمل على محورين

المحور الأول : تلقى المخاطب بالخبر المثبت .

المحور الثاني : تلقى المخاطب بالخبر المنفى .

تمهيد :

كان الزهاد في أجوبتهم حريصين على إرشاد المخاطب وتنبيهه إلى الأَوْلى والأَنْسب، وإلى ما ينفعه في آخرته عند لقاء ربه عز وجل ، ولذلك سلكوا مسلك العدول عن مقتضى الظاهر ، وذلك بحمل المخاطب على غير مراده ، وإجابته بغير ما يتوقع – في كثير من الأحيان – وذلك تنبيهاً إلى أن هذا هو الأولى بالقصد.

وتأتي بلاغة هذا الأسلوب في أنه يدفع المخاطب إلى التنبيه والإثارة والتأمل في الدلالة من العدول إلى خلاف المقتضى، فيتقرر المعني في ذهنه ويتبين له وجه الصواب.

والمتتبع لأجوبة الزهاد يجد أن هذا النوع من الأسلوب ، تلقي المخاطب بغير ما يترقب ،أكثر شواهد من النوع الأول المذكور في المبحث الأول ، ولعل السبب في ذلك أن الزهاد كانوا يتمتعون بمنزلة عظيمة في نفوس المخاطبين– في هذا الوقت– وكانوا يعجبون بآرائهم ويقدرونها ، ولذا فهم يكثرون من محاوراتهم بهدف الاستفادة من خبراتهم ونصائحهم كما كانوا يعرضون عليهم ما يستشكل من أمور دينهم ودنياهم بهدف العلم والمعرفة فيستقيم سلوكهم فكانوا يرشدونهم إلى ما فيه صلاحهم ، ونفعهم في الدنيا والآخرة.

والمتتبع لأجوبتهم يرى أن الشواهد في هذا المبحث تنقسم إلى محورين:

المحور الأول

تلقي المخاطب بالخبر المثبت.

تنوعت الأسرار البلاغية في هذه الشواهد تبعاً لحال المخاطب، والمعنى المقصود من العدول إلى خلاف مقتضى الظاهر ومنها:

١- تصحيح مفهوم المخاطب للبيع والشراء ، وتوضيح علاقة ذلك بالدين ومن أمثلة ذلك: جلس بعض الزهاد إلى رجل يشترى منه شيئًا فقال بعض من حضره هذا فلان الزاهد فأرخص عليه ، فغضب وقام وقال: إنما جئنا نشترى بدراهمنا ، ولم نجئ نشترى بأديانناً [(١)] فالسائل يطلب رخص الثمن لهذا الزاهد ، فيجئ جوابه رافضاً ذلك مع بيان السبب ، فكان رد الزاهد على خلاف ما يتوقعه المخاطب ، لأن الأصل فيه أن يقبل ذلك أو يرفضه ، إلا أنه عدل عن ذلك إلى ذكر وسيلة البيع والشراء وهي الدراهم ، وأن الدين ليس له أي صلة بالبيع والشراء ، فكانت عبارته كاشفة لما يدور في نفسه ، معبرة عن المعنى الذي يريده ، وهو أن لا علاقة بين الدين والبيع والشراء ، فالدين لله وحده ، أما المعاملات فأمر دنيوي محض.

فالغرض من الأسلوب الحكيم إرشاد المخاطب إلى القاعدة العامة، والحد الضابط لمعرفة الحكم الشرعي للبيع والشراء.

ولجأ الزاهد إلى استخدام وسيلة مؤثرة في إقناع المخاطب وهي أسلوب القصر، فهو من أقوى أساليب التأكيد فإن (إنما) إذا دخلت على الجملة تضمنت معنى جملتين أولاهما: نفى الشراء لأجل الأديان، وإثباته بالدراهم ، فاصطبغ الكلام بالصبغة الحجاجية ولو خلا الكلام من (إنما) لأصبح مجرد إخبار لا يتعدى ذلك إلى الحجاج ، وخص (إنما) دون غيرها من سائر الأدوات لما لها من مزية بلاغية فهي أم الباب ، وخصها الإمام عبد القاهر في كتابه " دلائل الإعجاز " بالذكر أكثر من

---

(١) الأجوبة المسكتة ص ١٢٧..

مرة إذ يقول " إعلم أنها تفيد في الكلام بعدها إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره فإذا قلت : إنما جاءني زيد ، عقل منه أنك أردت أن تنفى أن يكون الجائي غيره ، فمعنى الكلام معها شبيهاً بالمعنى في قولك : جاءني زيد لا عمرو[١].

وجاء استعماله لـ (إنما) طريقاً للقصر مناسباً للمقام ، فالمعلوم أنها تدخل غالباً على المعاني المألوفة القريبة من النفوس ، ولا تدخل على الحقائق الغريبة والأفكار البعيدة ، فكون البيع والشراء لا يكون بالأديان وإنما بالدراهم هذه حقيقة ظاهرة لا وجه لإنكارها ، وهذا يدل على ذكاء الزاهد في انتقاء الآليات والأساليب التي تعمل على إقناع المخاطب والتسليم لما يُلْقَي.

ومن دقة صياغة الجواب أنه لم يكتف بـ (إنما) وقيام الجملة معها مقام جملتين بل ساق أسلوباً خبرياً آخر يتضمن ما في معنى " إنما " وهو قوله (ولم نجئ نشترى بأديانا) وهذا التكرار من أنواع الإطناب يفيد التأكيد على عدم رغبته في تدخل الأديان في البيع والشراء ، والتكرار ظاهرة من الظواهر اللغوية يسميها الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الترداد فيقول: " جعل ابن السماك يوما يتكلم وجارية له تسمع كلامه ، فلما انصرف إليها قال لها كيف سمعت كلامي ؟ قالت: ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده ، قال أردده حتى يفهمه من لا يفهمه [٢] .

ففي كلام الجاحظ إشارة إلى أن لها بعداً عقلياً في التأثير والحجاج ومن ثم الإقناع.

ومن بلاغة الجواب أيضاً أنه عدل عن الرد بصيغة المفرد فلم يقل : جئت لأشتري، دراهمي، سيما أنه هو من يخصه الأمر ، وأجاب بصيغة الجمع في قوله:

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٣٥ ، تحقيق شاكر مطبعة المدني ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م .

(٢) البيان والتبيين ١٠٥,١٠٤/١– مكتبة دار الهلال – طبعة ١٤٢٣هـ

(نشترى – جينا – دراهمنا) ليكون الحكم عاماً لجميع البشر المسلمين وغيرهم ، وبهذا يكون الزاهد قد وظف عناصر النظم لخدمة الغرض والمقام.

وقد بنى أسلوبه على طباق السلب بين قوله (جئنا) (ولم نجئ) ، والطباق من المحسنات المعنوية التي تكسب المعني بهاءً وجمالاً ، هذا بالإضافة إلى إفادته استقصاء جميع أقسام المعني.

ومن دقته في تعبيره إتيانه بالواو بين جملتين (جئنا ، ولم نجئ) وذلك مراعاة لتمام المناسبة بينهما فهما خبريتان لفظاً ومعنى ، وهذا يدل دلالة واضحة على حسن اختيار الزهاد لألفاظهم ، والدقة في تعبيراتهم ليتحقق هدفهم من إمتاع المخاطب وإقناعه.

٢ – الإعراض عن الدنيا وملذاتها والترغيب في الآخرة ومنه قولهم : كان ماء داود في دن مقير بين الصيف والشتاء فقيل له لو بردت الماء فقال :" إذا أصبت في مثل هذا الحر ماء باردا فكيف أشتهى الموت [١] يطلب المخاطب هنا من الزاهد أن يبرد ماءه حتى يستساغ شرابه ، وخاصة في وقت الصيف ، لأنه وجده قد وضعه في دِن وهو ما عَظُم من الرواقيد وهو كهيئة الحُب إلا أنه أطول مستوفى الصنعة في أسفله كهيئة قَوْنس البيضة والجمع الدِنان وهى الحِباب ، وقيل : إن الدِن أصغر من الحُب له عُسْعُسْ فلا يقعد إلا أن يحفر له[٢] وقوله مقير أى مطلى بالقار وهو شيء أسود تطلى به الإبل والسفن فيمنع الماء أن يدخل [٣] مما يجعل الماء شديد السخونة ، فأتى جوابه على خلاف ما يتوقعه، لأن الأصل أن يجيبه (بنعم) أو(لا)، إلا أنه حمل كلام مخاطبه على غير مراده تنبيهاً على أنه الأَوْلى،

(١) الأجوبة المسكتة ١٣٠ ، عيون الأخبار ٣٦٤/٦ ، ٣٦٥ .
(٢) لسان العرب ١٣ / ١٥٩ .
(٣) لسان العرب لابن منظور ١٢٤/٥ دار صادر بيروت .

والأهم له ، فجاءت عبارته " إذا أصبت .....فكيف أشتهي الموت" تفيد إعراضه عن الدنيا ، وعن كل أمر يشغله عن الآخرة ، وقد صاغ جملة الأسلوب الحكيم صياغة مناسبة للتعليم والتوجيه حيث جاءت في قالب الشرط والجزاء لتكون محكمة حاضرة في ذهن المخاطب لا يتفلت من أجزائها شيئاً.

واتخذ أسلوب التعليل بالشرط وسيلة للتأثير في المخاطب ، لأن إذا الشرطية تعتبر رابطاً حجاجياً يربط بين الحجة والنتيجة فبرودة الماء – من وجهة نظره– تبعث على حب الدنيا وعدم اشتهاء الموت ، وهو لا يرغب فيها ، فيكتفى بالماء هكذا لتعلقه بالآخرة وما فيها من نعيم مقيم.

هذا إلى جانب خصائص التراكيب فاستخدام (إذا) مع الفعل الماضي يفيد تحقق الوقوع.

وفي ختام تعبيره دل الاستفهام على النفي في قوله (فكيف أشتهي الموت) أي إذا حدث وبردت الماء فلا أرغب في الموت بل يزيد حبى للدنيا وأنا لا أريد ذلك.

وتأمل جمال الاستعارة في قوله (أشتهى الموت) وقد صور الموت بالطعام الذى يشتهيه الإنسان، وقد حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه وهو " الاشتهاء " فقد مثل المعنى بالاستعارة بغرض التأثير على المتلقي .

إن تمثيل المعنى يوضحه ويخرجه إلى الحس والمشاهدة وهذه فائدة التمثيل في جميع العلوم، لأن المثال لابد أن يكون أظهر من الممثل فالغرض إيضاح المعنى وبيانه[١] .

فبكل ما سبق استطاع الزاهد أن يملك عقل مخاطبه.

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ٢٣٢ الطبعة الأولى دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٩٨٢-١٤٠٢هـ

ومن ذلك أيضاً: قيل لمالك بن دينار لو تزوجت فلانة من أهل البصرة فإنها موسرة فقال " إني طلقت الدنيا فلا رجعة لي فيها " [١] .

ففي هذا الشاهد عرض على مالك الزواج من امرأة غنية من أهل البصرة فجاء جوابه على طريقة الأسلوب الحكيم حيث أجابه بغير ما يترقب ، لأن الأصل أن يجيب برغبته أو عدم رغبته ، إلا أنه عدل عن ذلك وقال : " إنى طلقت الدنيا .....الخ..."

والسر البلاغي للعدول عن الأصل هو إعراضه عن الدنيا ، وعدم رغبته فيها، ولم يكتف بذلك ، بل أكد عزمه على عدم رغبته في الدنيا ، فزاد في الجواب قوله: " فلا رجعة لي فيها " وهذا يدل على الإصرار على ما كان منه من الإعراض فقد طلق الدنيا طلاقاً بائناً لا رجعة فيه ، كالمرأة إذا طلقها زوجها بائناً لا رجعة لها فهو خبر على خبر يفيد العزم على عدم الرغبة في الدنيا ، وإعراضه عن شهواتها وملذاتها.

ومن بلاغة الأسلوب الحكيم أنه صدَّرَ جوابه بالتأكيد في " إنى طلقت " مراعاة لحال المخاطب ودفع ما قد يتوقع منه من إنكار ، وتوهم أنه يرغب في الثراء وحب الدنيا ، وليقذف النتيجة والجواب داخل عقول المخاطب ، مرة واحدة ويدفع ما قد يعتريهم من شك أو إنكار ، وقد جمَّلَ الزاهد جوابه بالاستعارة حتي يستطيع التأثير على المتلقي دون أن يشعره بالملل ، ومن عناصر الجمال الأدبي الذى يزيد الجمال جمالاً والحسن حسناً وبهاء التنويع ، والتنقل بين الصور والأشكال الجمالية في الكلام ففي قوله: " طلقت الدنيا " استعارة فالطلاق هنا مستعار للإعراض عن الدنيا ، والبعد عن زخارفها ، وجاء قوله: " فلا رجعة لي " ترشيح للاستعارة ، ويحتمل كونها مكنية على أنه شبه الدنيا بالمرأة وحذف المشبه به، ورمز له بشيء

(١) الأجوبة المسكنة ص ١٤١ – صفة الصفوة لأبى الفرج الجوزي ص ٧٦٦

من لوازمه وهو قوله " طلقت " وتكمن بلاغة الاستعارة في تصويرها وإخراجها المعني المعقول في صورة محسوسة تتملاها العين.

كما جاء تعبيره بالماضي في " طلقت " ليدل على وقوع الحدث في الزمن الماضي وانتهائه .

ومن بلاغة الجواب الحكيم بناؤه على الطباق في قوله " طلقت " " ورجعة " وما في ذلك من إرشاد المخاطب وتنبيهه إلي عدم رجوعه إلى الدنيا بعد إعراضه عنها .

ومن خلال ما سبق تبين كيف استطاع الزاهد أن يلقي في عقل مخاطبه ما يهدف إليه من إثارة وإفادة .

٣ – إرشاد السائل إلى مراقبة الله عز وجل في كل أقواله وأفعاله ومن أمثلة ذلك أنه سمع بعض الزهاد رجلاً يتكلم بما لا ينبغي فقال: يا هذا إنما تملى على حافظيك كتاباً إلى ربك جل وعلا فانظر إلى ما تملي ، وإلى ما تكتب فإنك لو كتبت إلى أدمى لتحفظت من حجة تقم عليك ، أو شيء يشينك [١]

فقوله " يا هذا إنما تملى " جواب من الأسلوب الحكيم لأنه سمع منه ما لا ينبغي من ألفاظ ، فالأصل أن ينكر هذا أو يوجه له اللوم والعتاب إلا أنه عدل عن هذا إلى تقديم النصيحة مدعمة بالأدلة والبراهين حتى يتسنى له قبولها ، والإعراض عما هو عليه وهو ما يسمى بالاستدلال المستلزم للإقناع والقبول ، وجاء رده فيه حث على خشية الله تعالى، ومراقبته في السراء والعلن ، فجاءت بنية جوابه على صورة الأسلوب الإنشائي الوارد بصيغة النداء في قوله " يا هذا " وهذا للتنبيه أي انتبه أيها المخاطب وتيقظ لما يلقى عليك ، واستخدم أداة النداء يا وهي للبعيد

(١) الأجوبة المسكتة ص ١٢٧– الكشكول تأليف محمد بن الحسين بن عبدالصمد البهائي تحقيق السيد محمد السيد حسين المعلم – شبكة الفكر ٢٨٥/٢ – نثر الدر ٦٠/٧.

والمخاطب بها قريب منه وذلك تنزيلاً لبعده عن النفس منزلة بعد المسافة تحقيراً له، كما أن مجيئه بـ "هذا " إشارة للقريب لتحقيره بالقرب أيضاً ، ثم بعد ذلك أتى بنصيحته في قوله " إنما تملى على حافظيك كتاباً إلى ربك " وهو أسلوب خبري يفيد النصح والتوجيه ، ويتضمن الزجر والوعيد أي لا ينبغي أن يصدر منك مثل هذا بل عليك مراقبة الله ومحاسبة نفسك فيما تتكلم ، ومما يؤكد الدلالة على وجوب ذلك مجيء الجواب مؤكداً بأسلوب القصر في قوله " إنما " وهي تفيد إثبات الحكم لما بعدها ، ونفيه عمن سواه أي إنك تملي كتاباً إلى ربك لا إلى أحد سواه أي تخير ما يصل إلى ربك فسوف تحاسب عليه ، ومن دقة الصياغة في عبارته إتيانه بالكناية في قولة (حافظيك) والمراد الملكان الموكلان بحفظ الإنسان فهي كناية عن موصوف، واختياره لفظ (حافظيك) لإبراز المعنى مصحوباً بالدليل حتى تكون أقوى تأثيراً في السامع ، والزاهد هنا استمد لفظه من القرآن الكريم في قوله تعالي ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[1] وهو ما يسميه البلاغيون الاقتباس وهذا يدل دلالة واضحة على شدة تعلقه بالقرآن الكريم والاستفادة منه والعمل به .

وجاءت الإضافة في قوله (حافظيك) للتخصيص وذلك لأن لكل إنسان ملكين خاصين به ، يسجلان كل ما يصدر منه ، أما في قوله (ربك) فهي لتعظيم شأن المضاف وهو رب العالمين جل في علاه ، هذا بالإضافة إلى تعبيره بالمضارع في قوله (تملى) و(تكتب) لإفادة تجدد وحدوث هذا الفعل من العبد باستمرار دون توقف، كما أن التنكير في (كتابًا) يفيد التعظيم لأنه موجه إلى رب العالمين يأخذه المرء يوم القيامة ، ثم زاد في الجواب تأكيداً لوجوب المراقبة والمحاسبة ، ولهذا جاء الجواب الحكيم في قالب الأمر الصريح في قوله (فانظر إلى ما تملى وما

(١) سورة ق١٨

تكتب) نصحاً وإرشاداً له ، والتعبير كناية عن مراقبة العبد لربه سبحانه وتعالى ومحاسبته لنفسه في أقواله وأفعاله .

ومن خصائص التراكيب في الجواب تعدد صور الفصل بين الجمل فقد فصل بين جملتي (يا هذا) و(إنما تملي) لما بينهما من اختلاف في الخبرية والإنشائية فالأولى إنشائية لفظاً ومعني ، والثانية خبرية لفظاً ومعني ، ولما بينهما من اتصال ومماسة في الحكم فصل بينها ولم يوصل بالعاطف لئلا يشعر بالمغايرة ، كما أنه فصل بين قوله (فانظر) وجملة (إنما) لما سبق ذكره من الاختلاف في الخبرية والإنشائية أيضاً.

وقد استخدم الزاهد أكثر من وسيلة لإقناع المخاطب ، الأولى الإقناع بالتأكيد، ممثلاً في أسلوب القصر في قوله (إنما تملى على حافظيك) ، والأخرى هي الإقناع بالمقارنة وذلك في قوله(فإنك لو كتبت إلى آدمي لتحفظت من حجة تقم عليك أو شيء يشينك " أي: إنك إذا أرسلت مكتوباً إلى آدمي تراعى ما تكتب ، وتكون حذراً في ذلك ،وتفرّط في شيء تكتبه ، ويعرض على رب الأرباب ، وفيه تعريض بالذم أي لا ينبغي لأى إنسان أن يصدر منه مثل هذا ، فالنصح والإرشاد هو مضمون جوابه ، ومن هنا جاءت ألفاظه معبرة عن المقصود ، ملائمة له، وهذا يدل على دقة اختياره الألفاظ المناسبة للمعني المناسب ، وبذلك جمع الزاهد بين الحجة العقلية الإقناعية ، والمهارة الفنية الإمتاعية ،

٤ – إرشاد السائل إلى تذكر الموت، والعمل على الاستعداد لما بعده، ومن ذلك:

– قال الرشيد لابن السماك: عظني وأوجز، قال: " اعلم أنك لست أول

خليفة تموت " [١] تأمل – رعاك الله – هذه الموعظة البليغة ، وما فيها من تنبيه من غفلة ، وتذكير بحقيقة قد يتجاهلها الكثير ، ألا وهي الموت ، وأنه لاحق بكل إنسان ، وقد خرج الجواب . هنا . على خلاف مقتضى الظاهر ، فالمخاطب هنا يطلب الموعظة ، فالأصل أن يقدم له نصحاً بفعل شيء أو ترك غيره ، إلا أن الزاهد أجابه بغير ما يترقب تنبيهاً على أنه الأولى والأهم له ، ولذا أتى بأسلوب يتضمن حثه على الاستعداد للموت ، وإخباره بأنه سيموت ، كما مات الخلفاء قبله فأجابه بقوله " اعلم أنك " فصاغ جوابه في صورة الأمر الذى أفاد النصح والإرشاد ، فهو يوجهه ويعلمه أن الخلفاء كثيرون ولكن أين ذهبوا ؟، فعليه ألا ينشغل بالخلافة وأمورها عن الآخرة فالدنيا عرض زائل يأكل منه البر و الفاجر ، والآخرة وعد صادق حكم فيها ملك عادل، وكل شيء لامحالة زائل .

ومن وسائل الإقناع التي استخدمها الزاهد الإقناع بالاستدلال حيث ذكر الدليل على أنه ينبغي عليه الاستعداد للموت، وألا يغتر بالدنيا ، وتذكيره بما حدث لمن سبقوه من خلفاء ، ولم يعد لهم وجود فقد ماتوا ، فهو ليس أول خليفة يموت ، فعليه أن يحذر الدنيا وشهواتها ، ويستعد للقاء الله عز وجل ، فيلجأ المخاطب إلى التسليم والقبول لقوة حجته ووضوح برهانه .

وقد جاء جوابه في أقل الألفاظ وأوجزها – مع تضمنه عظات ونصائح كثيرة – وهذا يدل على أن السمت الغالب علي أجوبة الزهاد هو الإيجاز المفيد ، مما يستدل به على تمكنهم في اللغة العربية ودرايتهم بأساليبها ، واستخدامهم الأسلوب المناسب في المقام المناسب وهذه هي البلاغة .

---

(١) الأجوبة المسكتة ص ١٣٥ – أدب الدنيا والدين لأبي الحسن الماوردي ص١٣٥ دار اقرأ بيروت الطبعة الرابعة ١٤٠٥-١٩٨٥-نثر الدر في المحاضرات لأبي سعد الآبي ج٦٣/٧ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الاولي ١٤٢٤-٢٠٠٤

- ومنه أيضا أنه كتب بعض الزهاد إلى أخ له كان تزهد ثم أقبل على التجارة أما بعد " فاعلم أن التجار الذين كانوا قبلك قد ماتوا والسلام " [١]

رأى الزاهد أن أخاه رجع عن زهده وأقبل على التجارة ، فأراد أن يرشده إلى عدم الاغترار بالدنيا ، والتحذير من الركون إليها وإيضاح حقيقتها ، وبيان أن مصيرها زوال فجاء تعبيره (أما بعد: فاعلم أن التجار الذين كانوا قبلك قد ماتوا) على طريقة الأسلوب الحكيم وكان الأصل أن ينهاه عن فعله ، ويزجره على ذلك ، ويأمره بالعود إلى ما كان عليه ، أو يسأله عن سبب إقباله على التجارة إلا أنه عدل إلى بيان ما هو أهم له، وهو التذكير بالموت ، والاستعداد لما بعده ، وترك الدنيا وملذاتها ؛ للدلالة على تأكيد وجوب الاستعداد لما بعد الموت.

ومن دقته في تعبيره بناؤه على أسلوب الأمر في قوله (اعلم) الذي يتضمن تنبيهه من غفلته وإيقاظه منها، ثم أكد كلامه بـ (أن) لإزالة ما قد يساور المخاطب من شك .

وجاء التعريف بالموصولية في قوله (الذين كانوا) للإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو تحقيقه وثبوته فقد تحقق موتهم ، برز ذلك من دخول (قد) على الفعل الماضي (ماتوا) فأفادت التحقيق كما دل التعبير بالماضي في (كانوا) على انقضاء الحدث وانتهائه ، فلم يعد لهم وجود فجاءت ألفاظه دقيقة في مواضعها ، بليغة معبرة عن المعنى المراد

ومن أساليب الإقناع التي أتى بها الزاهد الإقناع بالقصة ، حيث ذكر لمخاطبه قصة التجار الذين عاشوا قبله ، وانكبوا على الدنيا وجمعوا الأموال ، ثم كانت نهايتهم المحتومة الموت فلم يعد لهم وجود ، فعلى الإنسان أن يأخذ العبرة ممن

(١) الأجوبة المسكتة ص ١٢٩

سبقوه ، وفيه أيضا ترغيب في العمل الصالح ، استعداداً للقاء الله سبحانه وتعالى ولذلك جاء جوابه شافياً كافياً.

ومن الأسرار البلاغية للعدول إلى الأسلوب الحكيم في أجوبة الزهاد الحث على التمسك بالمبادئ الإسلامية ومن ذلك قولهم : شكا رجل كثرة عياله إلى بعض الزهاد فقال: انظر من كان عيالك ليس رزقه على الله فحوله إلى منزلى[١].

يظن بعض الناس أن كثرة الأولاد سبب في ضيق الرزق ، وهذه الشكوى دليل على ذلك ، فجاء الجواب من باب الأسلوب الحكيم ، لأنه خاطب السامع بغير ما يترقب ، فمقتضى الظاهر أن يخبره بأن الأرزاق من عند الله ، ولا مبرر للشكوى ، إلا أنه عدل عن ذلك ، وصاغ جوابه في قالب الأمر مصحوباً بأسلوب الشرط في قوله : " انظر من كان عيالك ليس رزقه على الله فحوله إلى منزلي " للإثارة والتشويق ، فجملة الشرط تبعث في النفس الشوق واللهفة إلى ذكر الجواب فإذا ذكر تمكن المعنى في النفس ، ليدرك سر العدول إلى هذا الجواب الحكيم ، وكان هذا الرد مناسباً لحال المخاطب الذى يخيل إليه أن سبب شكواه هو كثرة أولاده ، ففيه دليل على استبعاد أن يرزق أحد أحداً ، وأن يكون إنسان سبب ضيق رزقه ، فهذا الجواب يستلزم إقناع السامع وإرشاده إلى وجه الحق ، حيث إنه يدفع المخاطب إلى التأمل بعقله وفكره فيما يطلب منه حتى لا يجد بداً من الإذعان بأن المتكفل بالرزق هو الله ، وأن كثرة الأولاد وقلتهم ليست سبب غنى أو فقر ، ويقر مسلِّماً بذلك ، فيرجع عن شكواه ، وبذلك يكون الزاهد قد أسدى له الحكم مدعماً بالدليل.

(١) الأجوبة المسكتة ١٤١- أدب الدنيا والدين ٢١٢-محاضرات الأدباء للراغب الاصفهاني ص ١٩٩ هذبه إبراهيم زيدان -مطبعة الهلال ١١٩٠٢

ومن دقة صياغته للجواب استخدامه الفاء التي تفيد التعقيب في قوله : " فحوله " أي: إذا وجدت ذلك فأت به مباشرة دون توان ، وتكرار أسلوب الأمر في قوله " انظر " و" حوله " لزيادة التقرير والتأكيد على أن الرزق بيد الله ، ولا صلة لكثرة الأولاد بالشكوى ، فعليه الثقة بالله ، ووجوب الاعتماد عليه ، وهذه هي المبادئ التي يدعونا إليها ديننا الحنيف .

ومما ورد في صياغة الجواب اختياره لفظ " حوله " الذى يفيد سرعة الإتيان بمن رزقه على غير الله ، إلى بيت الزاهد ، وجاءت الإضافة في قوله : " منزلي " لإفادة التخصيص فهو يطلب إتيانه إلى منزله خاصة لا غيره .

كما استخدم الزاهد أسلوب الفصل بين جملتي " فقال " و" انظر " ؛ لأن جملة " قال " فيها إبهام وغموض وإجمال فجاءت جملة " انظر " مفسرة وموضحة لهذا الإجمال فكانت بمنزلة عطف البيان في إفادة الايضاح ، وعطف البيان لا يعطف على متبوعة ، فكذلك لم تعطف الجملة الثانية على الأولى لأن قوة الاتصال بينهما أغنت عن الربط بواو العطف .

وقد استخدم الزاهد أسلوب الإقناع بالاستدلال وسيلة لإقناع مخاطبه ، فقدم له الدليل والشاهد حتى يأتي الجواب من نفسه .

ومن ذلك أيضاً قولهم " شكا رجل إلى الفضيل فأكثر الشكوى فقال: هل مدبر غير الله ؟ قال : لا ، قال : فارض به [١].

شكا هذا الرجل حاله إلى الفضيل ، فأتى بجواب حكيم صاغه في قالب الاستفهام التقريري المستلزم إثبات أن الله مدبر هذا الكون ومالكه ، ولا يوجد سواه، ولهذا أجاب الشاكي مقراً ومؤكداً فقال : لا ، وعندئذ أمره بالرضا بما قسم الله له ، وذلك في قوله: " فارض به " فهذا الجواب عدل فيه إلى الأسلوب الحكيم وذلك

(١) الأجوبة المسكتة ص ١٤٦ .

للحصول على تحقيق الهدف والغاية وهى الحث والترغيب على التمسك بمبادئ الدين الإسلامي، والتي من أهمها الإيمان بالقضاء، والقدر خيره وشره ، والإيمان به يستلزم عدم الشكوى ، فهنا نزل كلامه منزلة غيره ، فأجابه بغير ما يتوقع ، لأن الأصل أن يسأله عن سبب شكواه ، إلا أنه عدل إلى ما ذكر ، وذلك مراعاة لحال المخاطب، وقد استخدم الزاهد أسلوب الاستدراج؛ لتقريب المخاطب والتلطف به فقد وجد أن هذه الطريقة هي أجدى الطرق في إقناعه ، وانظر – وفقك الله – إلى ما احتواه الجواب من قطوف بلاغية حيث التنكير وإفادته التعظيم في قوله " مدبر " واختياره " هل " دون غيرها من أدوات الاستفهام فهي للتصديق وهو المراد إثباته هنا ، ولذا كان الجواب بالنفي ، واختياره الفاء دون سائر حروف العطف لأنها تفيد التعقيب وهو ملائم للمعنى أي إذا لم يكن هناك مدبر غير الله فالرضا يكون حتماً وفى التو دون توانى .

كل هذه الأساليب بالإضافة إلى الفصل بين الجمل ، فقد جاءت بدون واو العطف لعدم وجود مناسبة بينهما فهي مختلفة خبراً وإنشاء هذا بالإضافة إلى أنها أسئلة وأجوبة ولا يعطف الجواب على السؤال، كما لا يعطف الشيء على نفسه ، كل هذا يدل على بلاغة الزهاد ومعرفتهم بأنجح الوسائل والطرق التي تحقق الغاية والتي تناسب المخاطب ، وتجعله مقتنعاً بما يلقى إليه من نصح وتوجيه فيزداد معرفة بالحق والصواب .

وقد استخدم الزاهد أسلوب الاستدراج [١] لتقريب المخاطب والتلطف به حتى يصل إلى ما يريد منه .

---

(١) وهو استفعال من قولهم: استدرجته إلى كذا إذا أنزلته درجة واحدة حتى تستدعيه إليك وينقاد لما قلته، قال تعالى : " سنستدرجهم من حيث لا يعلمون " الأعراف من الآية ١٨٢ – ينظر الطراز للعلوى جـ ٢ ص ٢٨١ دار الكتب الخديوية ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م.

فالاستدراج يخاطب النفس ويستدرجها ليصل إلى أعماقها من خلال التمهيدات والمقدمات المندرجة ، والتمويه في القول والتمويهات تكون فيما يرجع إلى الأقوال ، والاستدراجات تكون بتهيؤ المتكلم بهيئة من يقبل قوله أو استمالته المخاطب

واستلطافه له بتزكيته وتقريظه أو بأطبائه إياه لنفسه، وإحراجه على خصمه حتى يصير بذلك كلاماً مقبولاً عند الحكم ، وكلام خصمه غير مقبول [١].

والاستدراج في الكلام يجب أن يراعى فيه حال المتلقي حتى يكون له الموقع الحسن في صورة محسوسة تتملاها العين .

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبى الحسن القرطاجنى ص ٦٤ ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة – دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى

المحور الثاني
تلقي المخاطب بالخبر المنفى

تنوعت الأسرار البلاغية لهذه الصورة حسب حال المخاطب، وتبعاً للغرض المقصود من العدول، و من هذه الأسرار:

١- تصحيح مفهوم الزينة لدى المخاطب، وإرشاده إلى المفهوم الصحيح، ومن ذلك ما ورد من أنه خرج بعض الزهاد في يوم عيد في هيئة رثة فقيل: أتخرج في هذا اليوم بهذه الهيئة والناس يتزينون ؟ قال: ما يتزين لله بمثل طاعته [١]

المتعارف عليه بين الناس أن الزينة يوم العيد تكون بانتقاء الملابس الجديدة، والاهتمام بالشكل والمظهر ، لذا عندما وجدوا هذا الزاهد يلبس الملابس الرديئة البالية ، يقال الرث والرثة والرثيث :الخَلِق الخسيس البالي من كل شيء .[٢] ولم يهتم بهيئته ومظهره أنكروا هذا الفعل في هذا اليوم وذلك في قوله (أتخرج في هذا اليوم بهذه الهيئة ؟)

فلما كان ما سبق فهم خاطئ لمفهوم الزينة رد عليه الزاهد رداً حكيماً مصححاً مفهومها وذلك بقوله (ما يتزين لله بمثل طاعته) وصاغ جوابه بأسلوبه النفي المفيد العموم والشمول لينفي أن يكون هناك زينة تعادل طاعة الله عز وجل، وذلك مراعاة لحال المخاطب الذى يعتقد أن الزينة في الهيئة والمظهر. وقد خرج جوابه على خلاف مقتضى الظاهر، لأن الأصل أن يبين له الأسباب التي دفعته لعدم التزين إلا أن الغرض من هذا العدول إرشاد المخاطب إلى الأَوْلى والأهم له ، وذلك ببيان المفهوم الصحيح للزينة، وحثه على طاعة الله عز وجل، فإنها خير ما يتزين به المرء ، فلا يوجد شيء أفضل منها بل لا يحاكيها .

---

(١) الأجوبة المسكتة ص١٢٧ – أدب الدنيا والدين ص١٢٢

(٢) لسان العرب ٢ /١٥١ .

وقد جاء تعبير الزاهد في يسر وسلاسة فأصاب معناه قال العسكري : (الكلام... يحسن بسلاسته وسهولته، ونصاعته، وتخير ألفاظه، وإصابة معناه وجودة مطالعه، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه، وتعادل أطرافه)[١]

وهكذا أبدع الزاهد في تعبيره في الحث على طاعة الله ، ولجأ إلى الأسلوب الحكيم ؛ ليجمع بين الإقناع والإمتاع .

ومن الأسرار البلاغية الحث على تحقيق مبادئ الإسلام والعمل بها ومن ذلك ما قيل لعابد بن عبد الله : ألا تتزوج؟ فقال : مالي مال ولا نشاط، فبم أعز مسلمة؟[٢].

يحث السائل العابد على الزواج ، فجاء الجواب يكمن فيه الهدف الرئيس والأسمى من الزواج وهو صيانة المرأة المسلمة وعزتها ، ولتحقيق ذلك لابد من مقومات المال والنشاط – على حد قول العابد – وهو لا يمتلك ما يحقق الهدف لأنه فقير الحال ، قليل النشاط ، ولذا لا يقبل على الزواج ، وقد خرج الجواب على طريقة الأسلوب الحكيم لأن الأصل أن يجيب (بنعم) أوْ(لا) إلا أنه عدل عن ذلك إلى ما ذكر ، والسر في هذا العدول تحقيق المبادئ الإسلامية من الزواج المتمثلة في صيانة الزوجة ، وحفظها، وتوفير كل وسائل الراحة لها .

" والأسلوب الحكيم ضرب من البلاغة ألطف في الرد ، وأقرب للمخاطب ، وأدل على ذوق المجيب ، إذ يحمل المخاطب على الرجوع إلى نفسه ، ومقارنة السؤال والجواب ، واستنباط الحكمة من المفارقة حتى يوحى إليه التظليل أن السؤال المقدر كان هو الأجدر " [٣].

---

(١) الصناعتين ص١٢٧

(٢) الأجوبة المسكتة ص ١٢٧.

(٣) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ، د/ عز الدين السيد ص ٣٥٠ ، دار اقرأ – بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

ومن خصائص التراكيب في الجواب تنكير قوله " مال ونشاط " الذى أفاد العموم أي ليس لدي أي مال ولا شيء من نشاط حتى أقدم على الزواج .

كما جاء العطف بين قوله " مال ونشاط " لما بينهما من تناسب ، فهما من أسباب الإقدام على الزواج ، وهما من قبيل عطف المفردات ، بينما فصل بين جملة " مالي مال " وجملة " فبم أعز مسلمة " لعدم المناسبة بينهما ، فالجملة الأولى خبرية لفظاً ومعنى ، والثانية إنشائية لفظاً ومعنى ، وهذا يدل على بلاغة هؤلاء الزهاد، وحسن استعمالهم للألفاظ والعبارات كل في موضعه اللائق به ، ولذا تأتى أجوبتهم مقنعة للمخاطب ، وتلقى القبول منه .

ومن ذلك قولهم شكا بعض البخلاء بخله إلى بعض الزهاد ، فقال له الزاهد " لست ببخيل ، البخيل الذى يعطي ويمنع ، وأنت تريد تعطيه كله جملة يعنى أنك تموت وتدع مالك لغيرك[١] فالجواب . هنا . جاء على خلاف مقتضى الظاهر لأن البخيل يقر بأنه بخيل ويشكو من ذلك ، فكان على الزاهد – على حسب الظاهر– أن يقر ذلك ويثبته ، أو أن يخبره بأن البخل صفة مذمومة ، وينصحه بالكف عنه إلا أنه اتجه بكلامه اتجاهاً آخر يتضمن الحث على التصدق ، والعمل على ما ينفع المرء في آخرته عند لقاء ربه؛ لأن هذا هو الأولى أن يعرفه السامع فقال :" لست ببخيل ،البخيل الذي يعطي ويمنع ، وأنت تريد تعطيه كله " فيأتي الجواب تصحيحاً لما ثبت في عقول الناس والمتعارف عليه بينهم أن البخل هو عدم بذل المال، فأتى جوابه نافياً تسميته بخيلاً ؛ لأنه يريد إعطاءهم ماله كله، والسر في هذا العدول هو الحث على بذل المال ، وإخراج الصدقات ، كما أن فيه تذكيراً بالموت والحث على الاستعداد لما بعده ، ثم رد رداً ثانياً موضحاً نفي اتصافه بالبخل وخروجه عن هذا الوصف

(١) الأجوبة المسكتة ص ١٢٨.

وقد صاغ جوابه في صورة الخبر المنفي في قوله " لست ببخيل " الذى أفاد إثارة المخاطب ، وشد الانتباه وذلك أنه عندما أبطل كونه بخيلاً استغرب الرجل الخبر وتعجب من ذلك ، ومن شأن الكلام في مثل هذه الأحوال المراد فيها عكس ما يرى المخاطب وقلب اعتقاده أن يقوى الأسلوب ويؤكده ليثبت عكس ما يعتقده ولذا جاء بقوله " البخيل الذي يعطي ويمنع " وأنت تريد أن تعطيه كله جملة ... ففي قوله: " البخيل الذي يعطي " أسلوب قصر بتعريف الطرفين باللام والموصولية ليقرر ويثبت أن البخيل هو الذى يعطي أحياناً ويمنع أخرى ، وأنت لست كذلك ، أما قوله: " وأنت تريد تعطيه كله " ففيه تقديم المسند على الخبر الفعلي؛ لتقوية الحكم وتوكيده .

ولزيادة التوضيح والتأكيد جاء بأسلوب من أساليب الإطناب وهو التوضيح بعد الإبهام في قوله " يعني أنك تموت وتدع مالك لغيرك " فجاءت الجملة تفسيرية لما قبلها حتى لا يساور المخاطب شك في فهم المراد ، ويتمكن الخبر في ذهن السامع ، ويصل به إلى ما يريد ، فمجيء صياغة الجواب الحكيم مبنية على الإطناب مناسب للمقام فالمقام للإرشاد والتعليم ، يحسن فيه التوضيح والتفسير، ودلالات التراكيب في الجواب ساندت مراد الزاهد ، ومحضت لقبول كلامه ، ومن ذلك التعبير بالأفعال المضارعة في قوله " يعطي ويمنع " يدل على التجدد والحدوث، فالعطاء والمنع يتجدد ويستمر ، كما أنه يستحضر صورة هذا العطاء وهذا المنع في ذهن المخاطب ، وتنوع أساليب الفصل والوصل في تعبيره ، وذلك تبعاً للمقامات والأحوال ففصل بين جملتي " لست ببخيل " و" البخيل الذي يعطي ويمنع " لأن الثانية بمثابة جواب نشأ من الجملة الأولى فكأن سائلاً سأل: لماذا ؟ أو إذا كان الأمر كذلك فما البخيل ؟ فأجيب بقوله "البخيل الذى يعطى ويمنع " فيكون بينهما شبه كمال الاتصال، وتحتمل أن تكون جملة " البخيل الذى يعطى ويمنع " تفسير وبيان للجملة الأولى فبينهما كمال الاتصال ، بينما أثبت الواو بين جملتي " يعطي

ويمنع " لأنهما خبريتان اجتمعتا على موصوف واحد ، كما وصل بين " تموت وتدع " لما بينها من الاتفاق في الخبرية ، والمسند إليه فيهما واحد ، وإتيانه بالفصل والوصل هكذا بين الجمل ، كل في موضعه يدل على علمه بالبلاغة كما قال العلماء قيل لأحدهم ما البلاغة؟ قال معرفة الفصل من الوصل.

ومما زاد التعبير حسناً إتيانه بالطباق في قوله " تعطي وتمنع " والطباق من المحسنات المعنوية التي تكسب المعني بهاءً وجمالاً كما أنه يفيد استقصاء جميع تفاصيل المعني ، وقديماً قيل الضد يظهر حسنه الضد.

ومنه أيضاً تصحيح مفهوم الدَيْن وإرشاد المخاطب إلى المفهوم الصحيح ومن ذلك أنه قيل للحسن فلان خرج فكسب مالاً قضي به دينه فقال لم يكن قط أكثر ديناً من اليوم [١] لما كان المشهور بين الناس أن الدَيْن يتعلق بالأمور العينية المحسوسة من مال أو غيره فقط ، لذا رد الحسن على من قال أنه كسب مالاً فقضي دينه رداً حكيماً يوضح فيه أن الدَيْن لا يقتصر على المال ، أو ما شابهه من الحقوق بين الناس ، فهناك دين شكر المنعم بل هو أهم دين ، والأصل أن يكون تعبيره غير ما ذكره كأن يحمد الله على ذلك ، أو عبارة أخرى تدل على الرضا والسرور ، إلا أنه عدل إلى الأسلوب الحكيم تنبيهاً إلى إرشاد السامع إلى الأَوْلى له، وتصحيح مفهوم الدين لديه ، وإعلامه بأن شكر المنعم أعظم دين يجب أداؤه لله عز وجل فهو الذى هيأ له السبل ، ورزقه بما قضى به دينه ، ورفع عنه مذلته.

وقد وظف الزاهد عناصر النظم لخدمة الغرض المقصود ، وصاغ جوابه بالأسلوب الخبري الذى أفاد معنى بلاغياً هو الحث وتحريك الهمة لأداء شكر المنعم وأنه يعد من أهم الديون التي يجب على الإنسان أداؤها ، ومن ذلك أيضاً التقييد

(١) الأجوبة المسكتة ص١٤١

بالظرف في قوله " اليوم " الذى أفاد التخصيص فلا يوجد ديناً أكثر من هذا في الوقت الذى رزقه الله بقضاء دينه .

ولا شك أن هذا الجواب دفع المخاطب إلى التأمل بعقله ، وفكره في حقيقة الدين ليتيقن أن الواجب على من رزق سداد دينه شكر واجب النعم ، ويعلم أن هناك منعماً عليه يجب قضاء حقه ألا وهو الله سبحانه وتعالى .

٢- الاستدلال الموجب للإقناع ومن صوره قيل لراهب: ما بالك إذا تكلمت أبكيت الناس، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم ؟ قال: ليس النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة[١].

السؤال ـ هنا ـ عن سبب بكاء المستمعين لكلام هذا الراهب ، رغم عدم بكائهم عند سماع غيره فجاء الجواب على خلاف مقتضى الظاهر ، إذ مقتضى الظاهر أن يوضح لهم الأسباب التي تدفعهم لذلك ، ولكنه عدل بجوابه إلى الأسلوب الحكيم ، وأخرجه في صورة المثل إذ أن العرب قديماً وقبل مجيء الاسلام كانوا يستأجرون نسوة تندب الميت في مقابل الأجر وهو قوله " ليس النائحة الثكلى ... الخ والمراد بالنائحة الثكلى هي الباكية على فقيدها، أي المرأة التي يموت لها قريب عزيز عليها فهي تبكي بمرارة على فقده من الثكل: الموت والهلاك ، والثكل والثكل بالتحريك : فقدان الحبيب وأكثر ما يستعمل في فقدان المرأة زوجها [٢] ، أما النائحة المستأجرة فهي المرأة التي امتهنت النياحة للتكسب فهي تأتي إلى أهل الميت وتعدد مناقبه لتضفى جواً من الحزن والأسى ، وتهيج المجموعات وتأخذ على ذلك مالاَ ، والفرق بينهما كبير كذلك الوعاظ والرهبان وهذا الجواب يدل على أن صدق

(١) عيون الأخبار لأبى محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المجلد الثاني، ج ٦/٢٨٩. .

(٢) لسان العرب ج٢ /١١٥، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩م.

الإحساس هو أساس القبول ، وأن ما خرج من القلب وصل إلى القلب ، أما الزيف والزائفون فهم يخدعون أنفسهم ،أما المخاطب فلا يقنع بكلامهم ولا يتأثر به ، ويدل أيضاً أن كلامه خارج من أعماق قلبه ولذا فهو يؤثر فيمن يسمعه ، أما غيره فلا ، وأتى جوابه مثلاً ليكون أكد للإقناع ، وأدعى للقبول وإزالة الغموض واللبس عن السائل ، ومن بلاغة الجواب أنهُ صدَّر بالأسلوب الخبري المنفي في قوله " ليس " لنفى المساواة بين الناس فيما يعبرون ، كما أن نائحة الثكلى ليست كالمستأجرة ، وفي إتيان جوابه بالمثل دلالة على ثقافة الزاهد وحفظه للتراث ، وتمسكه به ، واستخدامه الأدلة المناسبة في المواقف المناسبة لحال المخاطب، وهذه هي البلاغة فهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على من ختمت به الرسالات ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد،،،،،،

من خلال هذه الرحلة التي عايشتها الدراسة في كلام الزهاد خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين للوقوف على تعبيراتهم، وسلوكهم، وطرائق تفكيرهم في توظيف الأسلوب الحكيم، يمكن أن نرصد بعض النتائج التي تمخضت عن الدراسة.

١- كثرة شواهد الأسلوب الحكيم في أجوبة الزهاد ولعل ذلك راجع إلى:

أ- رغبة الزهاد في إقناع المخاطبين والسائلين، وتأكيد المعنى وتقريره في نفوسهم، خاصة وأن معظم هذه المعاني تتعلق بالأمور الدينية والأحكام التشريعية.

ب- تناسُب هذا الأسلوب مع حال المخاطبين لما فيه من تهذيب النفوس وتربيتها، وتمكين الحقائق في القلوب والعقول وتقريرها.

٢- كثرة شواهد النوع الثاني (تلقى المخاطب بغير ما يترقب) عن النوع الأول (تلقى السائل بغير ما يطلب) ولعل ذلك راجع إلى حال السائلين في سؤالهم الزهاد عن أمور دينهم ودنياهم، وما ينبغي عليهم فعله أو تركه من الأمور التي لا يعرفون حكمها .

٣- اتسم الأسلوب الحكيم في أجوبتهم بسمات عدة منها:

١- خلو الأجوبة من الأساليب المجازية ، وورودها مبنية على الحقائق والأمور الحسية لأن الهدف منها إقناع المخاطبين والسائلين بما يشاهدونه لكى يثبت المقصود في أذهانهم ، ويتمكن من نفوسهم " .

٢- تنوعت أساليب الزهاد ما بين أساليب خبرية وإنشائية، وكل جاء في موضعه اللائق به ، ومعناه الملائم له ، بحيث تناسب كل مخاطب ، وتؤدى بدلالتها غرضاً بلاغياً مقصوداً يتحقق معه تمكين المعنى في النفس فجمعت بين الإمتاع والإقناع .

٣- كثيراً ما يبنى الزاهد جوابه على التوكيد فأحياناً يأتي مؤكدًا رده بحرف من حروف التوكيد " أن – وإن " ، وأخرى بالتكرار ، وذلك لأغراض بلاغية منها مراعاة حال المخاطبين ، ومنها تقرير المعنى في نفس السامع ، وتمكينه في قلبه .

٤- امتازت الأجوبة بالإيجاز، والتركيز، والدقة، والوضوح، ولعل ذلك لسرعة حفظها، واستيعابها والعمل بما ورد فيها.

٥- يعد الأسلوب الحكيم وسيلة تعليمية وتربوية ناجحة لما يحققه في نفوس المخاطبين من تأثير وإثارة في معرفة الأهم والأَوْلى وإيقاظ الوعى نحو فهم ذلك ، ولما يحققه من أبعاد معرفية وتربوية تتعلق بتصحيح المفاهيم الخاطئة [١].

٦- تنوعت السياقات التي ورد فيها الأسلوب الحكيم في أجوبة الزهاد ، فقد ورد في سياق الترغيب في فعل الطاعات والمداومة عليها ، وفى سياق

(١) ينظر الأسلوب الحكيم في البيان النبوي صوره وأسراره البلاغية ، إعداد ا. د/ صلاح أحمد رمضان ، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية العدد ٣٦ لعام ١٤٣٩هـ/٢٠١٧م

التنفير من الانغماس في حب الدنيا وشهواتها ، والتحذير من الاغترار بها ، كما ورد في سياق الحث على التذكير بالموت والاستعداد لما بعده وكان الأسلوب الحكيم يتلاءم مع هذه السياقات ، ويتناسب مع أحوال المخاطبين .

وأخيراً أسأل الله العظيم أن ينفع بهذا البحث، وأن يكتب له القبول.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

١- الأجوبة المسكتة لابن أبى عون ، دراسة وتحقيق د/ مي أحمد يوسف – ط عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ،القاهرة ط١ ،١٩٩٦م

٢- إحياء علوم الدين للإمام أبى حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى ٥٠٥هـ دار المعرفة – بيروت –الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م

٣- أدب الدنيا والدين لأبى الحسن الماوردي شرح وتعليق محمد كريم راجح ، دار اقرأ بيروت الطبعة الرابعة١٤٠٥ هـ /١٩٨٥م.

٤- استراتيجية الخطاب مقاربة لغوية تداولية تأليف عبدالهادي بن ظافر الشهري دار الكتاب الجديد- بيروت الطبعة الأولي ٢٠٠٤م .

٥- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ، قرأه وعلق عليه محمود شاكر مطبعة المدني ، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩١م .

٦- الأسلوب الحكيم في البيان النبوي صوره وأسراره البلاغية تأليف د. صلاح رمضان بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط ، العدد السادس والثلاثون ١٤٣٩ هـ_٢٠١٧م

٧- الإيضاح في علوم البلاغة تأليف الخطيب القزويني – تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي- المكتبة الأزهرية للتراث-الطبعة الثالثة-١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٨- البرهان في وجوه البيان لابن وهب تحقيق د / أحمد مطلوب الطبعة الأولى.

٩- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة تأليف عبد المتعال الصعيدي _مكتبة المعارف _الرياض ١٤٢٠_١٤٢١هـ-١٩٩٩_٢٠٠٠م .

١٠- البلاغة الاصطلاحية د/ عبده عبدالعزيز قلقلية ، دار الفكر العربي – الطبعة الثالثة ١٤١٢-١٩٩٢ .

١١- البيان والتبيين لأبي عثمان بن عمر بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون – الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م مطبعة المدنى .

١٢- تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الدين الزبيدي تحقيق على هلالي .

١٣- تاريخ بغداد أو تاريخ مدينة السلام ، للخطيب البغدادي : أحمد بنى على بن ثابت البغدادي أبوبكر المعروف بالخطيب ، تحقيق بشار عواد معروف ، مكتبة دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .

١٤- تجارب الأمم وتعاقب الهمم تأليف أبي على أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه المتوفي ٤٢١هـ تحقيق سيد كروري حسن ، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولي ٢٠٠٣م-١٤٢٤هـ

١٥- تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء لأبي الحسن الهلال بن المحسن الصابي تحقيق عبدالستار أحمد فراج – الناشر مكتبة الأعيان .

١٦- التشبيهات لابن أبي عون عنى بتصحيحه محمد عبد المعيد خان جامعة كمبرج (١٣٦٩هـ-١٩٥٠م).

١٧- الحديث النبوي من الوجهة البلاغية تأليف د/ عز الدين السيد ، دار اقرأ – بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

١٨- – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني المتوفي (٤٣٠هـ) – دار الفكر ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

١٩- خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، تأليف د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م .

٢٠- دلائل الاعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق شاكر مطبعة المدني ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م .

٢١- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ، تأليف أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى ٥٣٨ هـ ، تحقيق عبد الأمير مهنا ، منشور مؤسسة الأعلمى بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ /١٩٩٢ م.

٢٢- الرسالة القشيرية في علم التصوف لأبي القاسم القشيرى النيسابورى مع تعقيبات شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق ودراسة هاني الحاج المكتبة التوفيقية.

٢٣- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، الطبعة الأولى دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٩٨٢-١٤٠٢هـ.

٢٤- شعب الإيمان للإمام للبيهقى، تحقيق محمد السعيد بسيونى زغلول ، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩١٠م .

٢٥- صفة الصفوة للإمام عبد الرحمن بن على بن محمد بن أبى الفرج الجوزي –دار الكتاب العربي.

٢٦- طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي تحقيق نور الدين شريبه، الطبعة الثالثة ١٤٠٦-١٩٨٦م.

٢٧- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحي بن حمزة العلوى ، دار الكتب الخديوية ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م.

٢٨- عيون الأخبار لأبى محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري دار الكتاب العربي – بيروت .

٢٩- فن التشبيه تأليف على الجندي – دار نهضة مصر – الطبعة الأولى ١٩٥٢م

٣٠- القاموس المحيط للعلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى المتوفى٨١٧هـ–دار الجيل بيروت

٣١- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، أبى هلال العسكري ، تحقيق البيجاوي، ومحمد أبو الفضل ابراهيم دار إحياء التراث العربي ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.

٣٢- كتاب الفهرست لابن النديم في أخبار العلماء والمثقفين من القدماء والمحدثين تأليف محمد بن اسحق النديم المقالة الأولى – دار الإحياء والتراث – بيروت.

٣٣- الكشكول تأليف محمد بن الحسين بن عبدالصمد البهائي تحقيق السيد محمد السيد حسين المعلم – شبكة الفكر .

٣٤- لسان العرب لابن منظور محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعى المتوفى ٧١١ هـ ، الناشر دار المعارف .

٣٥- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ، حققه وعلق عليه محمد محمد عويضة ، المجلد الأول .
٣٦- محاضرات الأدباء للراغب الاصفهاني ، هذبه إبراهيم زيدان – مطبعة الهلال ١٩٠٢.
٣٧- مروج الذهب ومعادن الجوهر للإمام أبى الحسين على بن الحسين بن على المسعودي المتوفى ٣٤١ هـ / ٩٥٧ م اعتنى به وضبطه كمال حسن مرعى – المكتبة العصرية – بيروت .
٣٨- معجم الأدباء" إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب " تأليف شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي ت ٥٧٤/٦٢٦هـ دار الغرب الإسلامي .
٣٩- مفتاح العلوم للإمام أبى يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن على السكاكى، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية١٤٠٧-١٩٨٧.
٤٠- منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبى الحسن القرطاجنى ، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة – دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى .
٤١- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، دار السرور بيروت لبنان ، بدون تاريخ .
٤٢- نثر الدر في المحاضرات تأليف منصور بن الحسين الرازي أبو سعد الآبى تحقيق خالد عبد الغني ، دار الكتب العلمية بيروت – الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م.
٤٣- وفيات الأعيان وأنباء وأبناء الزمان لأبى العباس شمس الدين محمد بن أبى بكر ابن خلكان ت ٦٠٨ – ٦٨١ هـ تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت .
٤٤- هدية العارفين " أسماء المؤلفين وآثار المصنفين " تأليف إسماعيل باشا البغدادي الناشر مؤسسة التاريخ العربي.